الصراع المصري العبري
والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

القسم الأول

مصر وإسرائيل

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

الثقافة السائدة في مصر والتراث العبري

تمهيد

ذكرتْ الأستاذة سكينة فؤاد (أهرام ١٣/ ٤/ ٢٠٠٤) أنه أثناء انعقاد المؤتمر الدولى لعلم المصريات بالقاهرة فى أوائل شهربرموده / إبريل ٢٠٠٠ تقدّم أحد المشاركين (لم تذكر اسمه) ببحث ادعى فيه أنّ ((أشهر رموز وأفكار الحضارة المصرية مستوردة ، وعلى رأسها الملكات (تى) ، (نفرتيتى) ووالدة تحوت / موس الثالث وحورس وآمون)) أى أنّ كل هذه الرموز ليست مصرية . ومن منطلق إحساسها بمصريتها كتبتْ الأستاذة سكينة فؤاد ((إنّ المأساة الحقيقية تمثلتْ فى موقف العلماء المصريين المشاركين فى المؤتمر، حيث لم يتصد لهذه الخرافة إلاّ عالم مصرى واحد (لم تذكر اسمه) ووصفها بـ « الهراء الذى لايمتلك سندًا علميًا واحدًا » وبالتالى لابد أنْ تكون أخرى (لا علاقة لها بالعلم) وراء هذه الافتراءات)) .

هذه المأساة – فى المشهد الذى روته الكاتبة الكبيرة سكينة فؤاد – تجسيد حى لغياب الإحساس بالحضارة المصرية من علماء مصريين (متخصصين) فى علم المصريات . وأنّ عالمًا مصريًا واحدًا فقط – من بين المصريين الحاضرين المؤتمر – هو

الذى تصدى لهذه الافتراءات التى يُروّجها جهاز الميديا الصهيونية ، بهدف سرقة الحضارة المصرية لصالح الادعاء الكاذب الذى يُروّج لمقولة أنّ بنى إسرائيل هم أصحاب هذه الحضارة ، مثل الادعاء أنّ المصرى الكبير(يويا) والد الملكة (تى) هو النبى يوسف العبرانى . فى حين أنّ علماء علم المصريات أكدوا أنّ الملكة (تى) هى زوجة (أمنحوتب الثالث) الذى لم يكتف بخلع أرفع الألقاب فى البلاط الملكى عليها ، أى (الزوجة الملكية الكبرى) ولكنه – أيضًا – أصدر سلسلة من الجعارين التاريخية سجل عليها تذكار زواجه من هذه الفتاة التى تنتمى إلى عامة الشعب (المصرى) وهى ابنة أحد الكهنة المصريين وأمها إحدى الكاهنات بمدينة أخميم فى مصر العليا . وكان الأب والأم يدعيان (يويا وتويا) ويبدو أنهما من بلاد النوبه السفلى (أنظر كتاب المرأة الفرعونية- تأليف عالمة المصريات الفرنسية- كريستيان ديروش نويلكور- ترجمة فاطمة عبدالله محمود- مكتبة الأسرة عام ١٩٩٩ ص ٤٧) وكذلك الادعاء بأنّ أخناتون هو النبى موسى الممثل الرسمى لبنى إسرائيل فى التراث العبرى . وأعتقد أنّ هذه المأساة هى تجسيدٌ حى لمستوى التعليم والإعلام فى مصر، ومستوى الثقافة السائدة بعد يوليو ١٩٥٢ . ولذلك كانت الأستاذة سكينة فؤاد محقة عندما أضافت ((وقد أصاب العالم المصرى (الوحيد) الحقيقة تمامًا ، فقد كانت النية مبيتة لاستخدام المؤتمر المقام على أرض مصر ، لاسقاط الهوية المصرية عن حضارتها القديمة)) .

ما ذكرته الأستاذة سكينة فؤاد تكرر ولكن بصورة أكثر مأساوية ؛ إذْ عندما استضافت مصر (مارتن برنال) مؤلف الموسوعة المهمة (أثينة إفريقية سوداء) والذى أكد فيها على أنّ مصر هى مهد الحضارة الإنسانية ، وليست اليونان كما يدعى البعض ، فى هذه الاستضافة ، وصف بعض (العلماء) (المصريين) كتاب جورج جيمس (التراث المسروق) وكتاب مارتن برنال (أثينة إفريقية سوداء) بأنها ((زبالة فكرية)) (أنظر: شوقى جلال فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق – الفلسفة

اليونانية فلسفة مصرية مسروقة) المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – عام ٩٦ ، هيئة قصور الثقافة عام ٢٠٠٨ ص ٣٩) بل وصل الأمر لدرجة أنّ آخرين (مصريين أيضًا بالاسم وأكاديميين بحكم الوظيفة) قالوا: إنّ الكتابيْن المذكوريْن يُدعمان الصهيونية وأنّ المؤلفيْن لهما توجهات صهيونية (المصدر السابق ص ٤٥) وهكذا تكون قمة المأساة فى شكل جريمة يرتكبها (مصريون وأكاديميون) تذهب عقولهم المريضة وضمائرهم (العلمية) الميتة باعتقاد أنّ من يدافع عن الحضارة المصرية عميل لإسرائيل وللصهيونية العالمية . وقد ذكر لى الأستاذ شوقى جلال أسماء هؤلاء المعادين لتراث جدودهم ؛ ويعف قلمى عن ذكر أسمائهم ، لأنّ القضية قومية وليست شخصية .

***

أعتقد أنّ أى مصرى مازالت مصر تنبض فى عروقه ، قد تملكه الغضب من إدعاءات الميديا الصهيونية التى تُروّج لأكذوبة أنّ بنى إسرائيل هم بناة الأهرام ، بل وبناة مجمل الحضارة المصرية ، والنتيجة هى : أنّ مصر ملكٌ لبنى إسرائيل .

من بين هذه الإدعاءات الفيلم الأمريكى (أمير مصر) من إخراج ستيفن سبيلبيرج ، الذى روّج لمبالغات الإسرائيليين عن أفران الغاز النازية فى فيلم (قائمة شندلر) وهو فيلم دعائى الهدف منه أنْ (يتعاطف) المشاهد مع اليهود الذين أحرقهم هتلر ، وبالتالى يكون لهم الحق فى استنزاف موارد الشعب الألمانى (فى شكل منح وقروض إلخ) تكفيرًا عن جريمة لم يرتكبها أحفاد هتلر ، ولكنْ أخطر ما فى الفيلم هو أنْ ينسى المشاهد مأساة الشعب الفلسطينى الذى إحتل اليهود الصهاينة وطنه .

أما فيلم (أمير مصر) فهو ترويج لأكذوبة أنّ موسى نبى العبريين ، تربى مع رمسيس الثانى ، على أنهما شقيقان ، وعندما يكبران يعلم موسى أنه ليس ابن

فرعون وإنما هو واحد من أبناء العبريين الذين يعملون فى بناء الأهرام والمعابد تحت سياط المصريين المتوحشين . ويُركز الفيلم على أنّ موسى هو المصمم العبقرى لكل ما أبدعته الحضارة المصرية ، ويضع فى إصبعه خاتم كبيرمهندسى الدولة . مع تكرار لقصة خروج بنى إسرائيل من مصركما جاءت فى كتب العبريين. وينتهى الفيلم بانتصار الخير(موسى وبنى إسرائيل) على الشر(فرعون والمصريين) وبعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وبعد التأكيد على أنّ موسى وأتباعه هم بناة الحضارة المصرية، فإنّ الفيلم يُكرر ما جاء فى كتب العبريين التى يُقدسونها عن العقاب الذى أنزله ربهم على المصريين ، وهو العقاب المتمثل فى انهيار مصر وتحويل أرضها ونيلها إلى دم وبعوض وذُبان إلخ . فإذا كان بنو إسرائيل هم الذين شيّدوا الحضارة المصرية ، فإنّ مصر ملكٌ لهم خصصة وأنّ إله العبريين انتصر لهم ودمّر مصر والمصريين (لمن يريد تفاصيل أكثر عن هذا الفيلم أنْ يرجع إلى مقالات أ. عادل حموده – صحيفة الأهرام ٦ ، ٢٧ فبراير،٦ مارس ٩٩) .

إنّ إدعاءات الميديا الصهيونية ضد مصر تُركز على محورين أساسيين :

الأول : أنّ المصريين القدماء غلاظ القلوب ، لايعرفون الرحمة ، وأنهم اضطهدوا بنى إسرائيل وعاملوهم معاملة العبيد (انظر : العهد القديم، سفرالخروج ٢ : ٢٣-٢٥) .

الثانى : أنّ بنى إسرائيل هم المصممون والمنفذون والمشيّدون للحضارة المصرية .

لم يكن فيلم أمير مصر هو البداية ، وأعتقد أنه لن يكون النهاية ، حيث أنّ تاريخ الميديا الصهيونية فى الترويج لهذين المحورين ، تاريخ قديم . وسأكتفى بذكربعض الأمثلة :

الدور المشبوه الذى لعبه بعض الكتاب الأوروبيين الذين يتشحون بمسوح الأكاديمية وتمتلئ كتاباتهم بمغالطات تاريخية وعلمية ، ولهم أهداف أيديولوجية

سياسية تفتقر إلى لغة العلم ، ويتلخص كل جهدهم فى ترسيخ استبعاد أى دور للمصريين القدماء فى بناء الحضارة الإنسانية ، ومن بين هؤلاء الكاتب البريطانى (جون تايلر) الذى روّج (لنظرية) قال فيها أنّ ((بناة الأهرام كانوا من أبناء شعب الله المختار، ومن نفس السلالة التى انحدر منها إبراهام ، وإنْ كانوا من أزمنة سابقة بطبيعة الحال ، أقرب إلى نوح فى واقع الأمر)) (نقلا عن كتاب قراءة سياسية للتوراة- تأليف أ. شفيق مقار- الناشر رياض الريس للكتب والنشر- عام ١٩٩١ ص ٩١) .

ومن هؤلاء أيضًا الثيوصوفى (أى العارف بالله عن طريق التجلى الصوفى) بازل ستيوارد صاحب كتاب (سر الهرم الأكبر) الذى كتب ((ليس هناك ما يُبرر القول إطلاقًا بأنّ المصريين هم الذين بنوا الهرم لمجرد أنّ الهرم موجود فى مصر)) ليس ذلك فقط ، بل إنّ ((بذور عظمة مصر بذرتها حفنة من المستوطنين دخلت مصر بسلام ونظّمت القيام لعمليات الانشاءات العظيمة)) وهؤلاء المستوطنون من وجهة نظر السيد ستيوارد ، فإنهم جماعة من ((الآسويين القادمين من أرض الفرات، وكانوا على مستوى رفيع من المعارف العلمية والرياضية)) وأنهم عندما دخلوا مصر ((نظّموا عملية إنشاء الهرم الأكبر)) وبعد أنْ تم إنشاؤه ((خرجوا من مصر آخذين معارفهم معهم)) (المصدر السابق ص ٩٢) .

وقد علّق أ. شفيق مقار على ذلك الكلام فكتب ((وأولئك (السوبر مِنْ) الآسويين الذين جاءوا من أرض ما بين النهرين ، هم بلا شك – حسب التجلى الصوفى الأممى – أسلاف إبرام وإسحاق ويعقوب وأسلاف مستربيجين بطبيعة الحال)) والنتيجة التى تترسب فى عقل القارئ الأوروبى هى أنّ المصريين ((كانوا متخلفين وبدائيين وعراة ، وليس أولئك الرعاة الرحل الجياع الذين تسللوا عبر حدود مصر ليأكلوا وينهبوا)) .

فى شهر مارس ١٩٧٩ أثناء مفاوضات توقيع معاهدة كامب ديفيد سأل أحد

الصحفيين رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجين عن سيرالمفاوضات فقال ((لقد عانيتُ فى المفاوضات كما عانى جدودى فى بناء الأهرامات)) وعندما جاء بيجين إلى مصر وزار الأهرام مع الرئيس السادات قال ردًا على سؤال من أحد الصحفيين ((إننى أشعر بالزهو والفخر وأنا وسط الأهرامات التى بناها جدودى)) وهنا تكون المأساة مزدوجة ، أو هى مأساة ذات وجهين مثل العملة النقدية : على أحد الوجهين ادعاء هذا الصهيونى (بيجين) بأنّ جدوده هم بناة الأهرام ، وعلى الوجه الآخر الصمت المزرى من كل (المصريين) الذين قرؤوا وسمعوا كلام بيجين (وخصوصًا من حضروا اللقاء مع الرئيس السادات) ولم ينطق واحد (واحد فقط) بكلمة يدافع فيها عن الحقيقة التاريخية ، ناهيك عن دفاعه عن ذاته القومية .

***

الأمثلة السابقة هى على سبيل المثال بالطبع ؛ لأنّ ما يهمنى ويهم كل مصرى هو رد فعل الثقافة السائدة فى مصر على هذه الإدعاءات .

إنّ أى مصرى – مهما كانت درجة ثقافته – سيرد على الفور: إنّ هذه الادعاءات مجرد أكاذيب . وأننا نحن المصريين أحفاد جدودنا المصريين القدماء الذين شيّدوا هذه الحضارة .. إلخ ولكن نظرة متأملة فى كتابات أغلب الكتاب (المصريين) توضح أنّ هذه الكتابات تلتقى مع الميديا الصهيونية (دون قصد بالطبع) حول محور أساسى هو احتقار الذات القومية لنا كمصريين . فإذا كان فيلم (أمير مصر) ركز على بلورة أنّ موسى وبنى إسرائيل هم رمز الخير، وأنّ الفرعون (=الملك) والمصريين هم رمز الشر، فإنّ صورة (الفرعون) فى كتابات كثيرين من الكتاب (المصريين) لاتختلف عن صورته فى الفيلم الأمريكى التمويل ، العبرى التوجه (أمير مصر) وفيما يلى بعض الأمثلة من كتابات بعض الكتاب (المصريين) وكيف ينظرون إلى الفرعون (جدهم ورمزهم القومى) .

كاتب كبيرفى صحيفة قومية عرض كتاب (التجديد السياسى والواقع العربى

المعاصر رؤية إسلامية) تأليف د. سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل . الكاتب الصحفى (المصرى) أبدى إعجابه بمؤلف الكتاب والسبب أنه عرض ((الوجه الآخر للالتزام بالرابطة الإيمانية السياسية ، والذى يحول دون الانحراف بها بإتجاه الرابطة الفرعونية)) وفى موضع آخر كتب أنّ الرابطة الإيمانية كما عرضها مؤلف الكتاب ((تُصاغ على تأسيس من قواعد إلهية ، وفى إطار من قيم تحكمها ومن ضوابط تحميها ، فلا تترك تأسيسها لأحد من البشر، لأنّ محتواها الإيمان بما أنزل الله ونقيضها هو ما أسماه بالعلاقة الفرعونية)) والكاتب الصحفى (المصرى) ترجم إعجابه بالكاتب بطريقة عملية إذْ افتتح مقاله قائلا ((صاحبنا هذا قَلَبَ الطاولة على رؤوس بغير حصر. ألقى قذيفة فكرية متقنة الصنع والتصميم ، طالب فيها بالتجديد من الأساس.. إلخ)) (صحيفة الأهرام ٢٩/ ٨/ ٨٩) .

كاتب صحفى آخر يكتب عن بعض رؤساء الدول الذين يصفهم بالطغيان ، فكتب عن صدام حسين ، وعن صراع زعماء القبائل فى اليمن . وعن زعماء القبائل فى آسيا وإفريقيا وعن (كيم إيل سونج) زعيم كوريا الشمالية (بعد وفاته) فكتب ((كيف يبكى الناس بكل هذه الحرارة دكتاتورًا رزح بحكم الطغيان على أنفاس الشعب)) الأستاذ الصحفى (المصرى) فى كل هذه المقالات لايفوته تشبيه كل هؤلاء الحكام الطغاة بالطاغى الأكبر(فرعون) بل إنّ (فرعون) فى رأيه قد لخّص ((كل مناهج الطغاة)) (انظر على سبيل المثال بالطبع – مربعه اليومى فى صحيفة الأهرام ١٨/ ٨/ ٩٠ ، ١/ ٩/ ٩٠ ، ١٧/ ١/ ٩١ ، ٢٩/ ٥/ ٩٤ ، ٥/ ٨/ ٩٤ ، ١٩/ ٢/ ٩٩ ، ٨/ ٣/ ٩٩ ، ١٣/ ٣/ ٩٩) وإذا كان الأستاذ (المصرى) لايشعر بأى حرج (أو خدش للحياء) لكرامته القومية وهو يسب الفرعون (جده) لذلك فإنّ سؤالا مشروعًا يفرض نفسه : ما الفرق بينه وبين العبريين أعداء مصر والمصريين ؟

وفى حين أنّ (مصريين) بعضهم يعمل بالصحافة أو يكتبون الشعر والقصة وسيناريو الأفلام والمسلسلات إلخ تسمح ضمائرهم بسب (الفرعون) مثلما فعل

الشاعر الذى كتب أغنية المقدمة لمسلسل (حدائق الشيطان) ونظرًا لأنّ بطل المسلسل طاغية ومستبد ، فإنّ الشاعر كتب بصوت الكورس (المجاميع) ((مين قال لك يا فرعون تتفرعن ؟.. إلخ) مع ملاحظة أنّ المسلسل يشاهده ملايين المصريين والعرب ، بينما نجد أنّ الأمهات والآباء من الشعب الإيرانى لايزالون يختارون لأولادهم أسماء الأكاسرة (= ملوك) الذين حكموا فارس (إيران حاليًا) مثل (داريوش) ، (آراش) ،(كورش) إلخ رغم أنّ هؤلاء الأكاسرة وفق الحكم القيمى غير العلمى (وثنيون) وظهروا على مسرح العالم قبل ظهور الإسلام بعدة قرون (كورش الأكبر عاش وحكم فى القرن السادس ق . م) بل إنّ الشعب الباكستانى شائع بينه اسم (برويز) الذى هو حفيد كسرى الأول (أنوشروان) ولست فى حاجة إلى التأكيد على أنّ الإسلام هو الديانة الرسمية للشعبين الإيرانى والباكستانى .

وتتعاظم المأساة عندما نجد باحثًا كبيرًا (مصريًا) له عدة مؤلفات فى الفلوكلور، يخلط بين التراث العربى والتراث المصرى بإعتبارهما شيئًا واحدًا . هذا الباحث لا يهاجم الفرعون بشكل مباشر، ولكنه يُكرر مقولة أنّ الحضارة المصرية هى ((حضارة السخرة الإنشائية من أهرامات ومعابد ومقابر على طول وادى النيل ، فهى قوة عمل تقودها أسواط المشرفين..إلخ)) وإذا كان هذا هو رأيه فى الحضارة المصرية ، فلم تكن مفاجأة أنْ يكتب مُشبهًا (كتاب الموتى) ب ((عشرات الكتب التى تزحم الأرصفة عن القبر وعذابه.. إلخ)) (صحيفة الأهرام ١٠/ ٥/ ٩٨ ، ٢٨/ ٢/ ٩٩) .

إنّ (كتاب الموتى) والترجمة الدقيقة عن الهيروغليفية هى (الخروج إلى النهار) الذى وضعه جدودنا فى رأى علماء علم المصريات جمع بين الفلسفة والأخلاق ، ورسم صورة للحياة الآخرة بعد الموت ، وأنّ مصير المذنب (الذى ارتكب بعض المعاصى على الأرض) أنْ يلتهمه (عم – موت) أى الوحش الذى يلتهم قلوب الأموات الشريرة . أما مصير الإنسان الصالح الذى لم يرتكب الآثام ، فيدخل

حقول الياروا (= الجنة) وعلى سبيل المثال كتب العالم الكبير(برستد) أنّ الذى خلّص كتاب الموتى من وصمة أنه كتاب سحرى ((تقديره الظاهرلمسئولية الضمير)) (انظركتاب فجرالضمير- ترجمة عالم المصريات سليم حسن – أكثر من طبعة – ص ٢٨٩) أما عالم المصريات محسن لطفى السيد فكتب فى تفسيره لعبارة ((أنا الأمس وأعلم علم الغد)) الواردة فى (كتاب الموتى) أنّ ((الأمس هو أوزير والغد هو الإله أتوم (رع) وهكذا يُشير أوزيرإلى الزمان الماضى ، أما (رع) فهو المستقبل ، وما الماضى والمستقبل إلاّ جزءان لاغنى عنهما كى تتم حركته الأبدية)) (انظركتاب ما هو كائن فى العالم الآخر- طبعة على نفقة المؤلف ص٩) وذكرأيضًا أنه لا يوجد متحف فى العالم للمصريات يخلو من البرديات التى دُوّن عليها نص كتاب الموتى (الخروج إلى النهار) (ص ١٣) أما أ. شفيق مقار، فلأنه يحترم العلم ويكتب بلغته ، فقد عقد مقارنة شديدة الذكاء بين ما ورد فى (كتاب الموتى) عن قصة الخلق كما تصوّرها المصرى ، وبين ما جاء فى العهد القديم ، وكيف أنّ العبريين سطوا على التراث المصرى ، فى فصل ممتع بعنوان ((نهب أساطيرالشعوب)) (قراءة سياسية للتوارة – مصدرسابق – ص ١٣٤) إنّ كتاب الخروج إلى النهار الشهير بـ(كتاب الموتى) الذى يراه الباحث (المصرى) الذى يخلط بين التراث المصرى والتراث العربى ويعتبرهما شيئًا واحدًا ، والذى وصف كتاب الموتى بعشرات الكتب التى تزحم الأرصفة عن القبر وعذابه.. إلخ هذا الكتاب الشهيرب (كتاب الموتى) عبارة عن بردية باسم صاحبها المرحوم (آنى) فى الفصول الأولى نتعرف على المحكمة التى ستحاكم روح المرحوم (آنى) يرأس المحكمة الإله أوزير. وأعضاء المحكمة ٤٢ قاضيًا يُمثلون محافظات مصر القديمة. يقف المرحوم آنى (كل متوفى فى مصرالقديمة كان يُطلق عليه أوزيرأى المرحوم) أمام القضاة مرتلا ((يا قلب أمى لاتقف ضدى شاهدًا . لاتفترى علىّ كذبًا أمام الإله)) وفى الختام يقول الإله تحوتى ((إنّ أفعاله وُجدتْ صالحة فى الميزان العظيم . الأوزيرآنى لم يرتكب إثمًا ولم يصنع

شرًا . إنّ عم – موت (الوحش الذى يلتهم قلوب الذين ارتكبوا الآثام) لن يكون له سلطة عليه)) .

الميزان فى قاعة المحكمة فى إحدى كفتيه ريشة ماعت (إلهة العدالة) وفى الأخرى قلب المتوفى ، والمعنى الرمزى هنا أنْ يكون القلب خفيف الوزن مثل الريشة ، لم تُثقله الخطايا . ورمز آخر هو أنّ القلب والريشة متساويان . وفى الفصول الأخيرة تدخل الروح حقول الیارو(= الجنة) ونرى آنى وهو يقود زوجًا من الثيران. ونراه وهو يحصد ثمار القمح ويقول ((أريد أنْ أكون قويًا عساى أنْ أحرث هناك وأصنع كل شىء كنتُ أصنعه على الأرض)) (أنظر ترجمة عالم المصريات محسن لطفى السيد ، الذى وضع النص الهيروغليفى وترجمته إلى اللغتين العربية والإنجليزية – مطابع روزا ليوسف ص ٤٩٢ ، عام ٢٠٠٤ على نفقته الخاصة ، وأعادتْ الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة طباعته عام ٢٠١٠) والمعنى أنّ الحياة فى حقول الیارو(= الجنة) صورة طبق الأصل من حياة المصرى على الأرض ، حياة تعتمد على العمل وبصفة خاصة الزراعة التى مهّدتْ لنشأة الحضارة . وهنا نلاحظ أنّ صورة الجنة عند جدودنا المصريين القدماء مختلفة تمامًا عن صورة الجنة فى تراث شعوب أخرى ، حيث تُصوّرالذين دخلوا الجنة وهم يأكلون ويشربون ويتمتعون بحورالعين والغلمان المخلدين ، وبدون أى عمل .

وتصل الفلسفة فى بردية آنى إلى معنى إنسانى عميق ، إذْ عندما يسأل آنى عن المتع الجنسية ، يرد عليه الإله (آتوم) : ((إنك سوف تحيا بسلام . لقد أعطيتك التجليات بدلا من الماء والهواء والمتع الجنسية. وهذا القلب عوضًا عن الخبز والحنكت (= البيرة وهى المشروب الشعبى فى مصرالقديمة) والمعنى هنا أنّ المتع فى حقول الیارو (الجنة) متع روحية.

وفى الفصل رقم ١٢٥ يُرتل المرحوم آنى الاعترافات الانكارية وعددها ٤٢ اعترافًا ويتضح منها حرص المصرى القديم على نبذ رذيلة الكذب التى تمقتها

الشعوب المتحضرة فى عصرنا الحالى وتعتبرها من الكبائروذلك بعد آلاف السنين من كتابة بردية آنى الذى يقول لإله أبيدوس ((التحيات لك يا من تمقتْ الكذب)) وأكثرمن ذلك نجد فى اللوحة العاشرة نصًا بالغ الأهمية (لم أعثرعلى مثيل له – وفق قراءاتى – فى كل الشرائع والفلسفات) إذْ أنه يُساوى بين رذيلة الكذب وفضلات الكائن الحى ، ووفق نص البردية فإنّ ((الآلهة المصرية تمقتْ البراز والكذب)) كما أنّ البردية تُدين رذيلة أخرى وهى جريمة التلصص على الآخرين فيقول آنى ((أنا لم أسترق السمع)) وتشمل الاعترافات تجريم الاعتداء على حقوق الغير وتجريم الزنا والسرقة وعدم الاعتداء على مياه النيل بالتسبب فى تلوثها إلخ .

وخيال كاتب البردية يتضح من فكرة الصعود إلى السماء بواسطة (سلم) متخيل صنعه الإلهان (رع) و(حورس) وفى رصده لظاهرة الشروق والغروب ، فإنّ (رع) يغرب فى صورة (أوزير) وأوزير يُشرق فى صورة (رع) ثم أصبح أوزير هو الأمس و (رع) هو الغد . كما يُبدع مركبًا للصباح رمزًا للخلود ومركبًا للمساء رمزًا للأبدية وهما وجهان لشىء واحد هو الخالق السرمدى . وفى اللوحة رقم ١٦ نجد المرحوم آنى يركع فى بركة ماء نبتتْ فيها شجرة جميز مورقة وداخل فروع الشجرة نرى إلهة السماء (نوت) وهى تصب الماء على راحة المرحوم آنى . أى أنّ خيال كاتب البردية (أنسن) الإلهة (نوت) فى حركة صب الماء ، كما أضفى عليها صفات الرحمة والمودة بالصورة المجسدة وليس بالكلمات . ومن الخيال البديع تحوّل المرحوم آنى إلى طائريُحوّم حول قريته ليرى منزله ويُشاهد أهله . ويبدو أنّ المرحوم آنى اشتاق إلى زوجته (توتو) التى نراها معه فى اللوحة رقم ٣٤ وهى تحمل باقة طويلة من أزهار اللوتس . وفى اللوحة رقم ٢٨ نرى رأسا لإنسان يخرج من زهرة اللوتس ، وهو رسم رمزى يُمثل بزوغ الشمس يوميًا وفق عقيدة (منف) وتُسمى (نفرتوم) أى الحسن التام ، أوالجمال المكتمل وفق الترجمة عن الهيروغليفية. والرسم يرمز إلى ضمان بعث المتوفى ، وأنه يستطيع أنْ يتحوّل إلى زهرة لوتس . والخيال

يرسم صورة بديعة للإله الذى يرى كل شىء فى الوجود ، إذْ أنّ ((وجهه فى قفاه)) وتُشير البردية إلى أنّ جدودنا عرفوا تقسيم العمل والنظام الحسابى والأعداد الكبيرة مثل الحديث عن ملايين السنين .

إنّ بردية (الخروج إلى النهار) تؤكد على أنّ موت الإنسان على الأرض ما هو إلاّ موت الجسد ، أما الروح الطاهرة التى لم ترتكب الآثام المنصوص عليها فى الاعترافات الإنكارية ، فسوف تعيش فى حقول الیارو. وأنّ الروح تنتقل من حياة إلى حياة أخرى شبيهة بالحياة فى الحقول المصرية على أرض الواقع . وهذا الخيال ينفى افتراءات أعداء القومية المصرية وأعداء الحضارة المصرية الذين يزعمون أنها (حضارة موت) وعن العلاقة الجدلية بين الحياة والموت ، ذكرعالم المصريات الكبيرسليم حسن ، أنّ اللغة المصرية القديمة لم تعرف لفظة (الموت) وكان المصرى القديم يستخدم للتعبيرعنها لفظة (الغرب) وكان ((الغرب عند قدماء المصريين مكان الخلود ، والشرق مكان الولادة)) (الأدب المصرى القديم – ج ٢ – مطبوعات كتاب اليوم – الصادرعن مؤسسة أخبار اليوم – ديسمبر ١٩٩٠ – ص ٧٩) كما أنّ العلاقة بين الحياة والموت ، استمدها المصرى القديم من ظاهرة شروق الشمس ثم غروبها ثم شروقها من جديد ، وكذلك من ظاهرة تجدد فيضان النيل كل عام إلخ . وعن تلك العلاقة الجدلية بين الحياة والموت قال الأديب الكبير(أندريه مالرو) وزير الثقافة الفرنسية عندما كان فى مصر فى صحبة وزير الثقافة ثروت عكاشة ((إنّ ما بحثتْ عنه مصر فى الموت ، هو (تحديدًا) القضاء على الموت .. إننى باسم فرنسا أشكر مصر التى كانت أول من ابتكر الخلود)) (أنظر كتاب مصر ولع فرنسى – تأليف روبير سوليه – ترجمة لطيف فرج – مكتبة الأسرة – عام ٩٩ ص ٣٣٦) كما أنّ أصحاب هذه الحضارة اخترعوا أول أبجدية فى العالم القديم وأول تقويم مازال العالم المعاصر يعتمد عليه . وأسسوا علوم الطب والهندسة والفلك والرياضيات . وأبدعوا فى فنون الرسم والنحت والأدب

القصصى ، وصياغة منظومة من الأساطير انتقلتْ إلى الكثير من الأدب العالمى . كما أنّ الأساطيرالمصرية امتزج فيها طين الواقع بفضاءات الخيال كما فى بردية الخروج إلى النهارالشهيرة ب (كتاب الموتى) وهى البردية التى لم ير فيها الباحث (المصرى) سوى أنها تتحدث عن القبر وعذابه مثل عشرات الكتب الملقاة على الأرصفة .

***

كذلك نجد أستاذا آخر يحمل درجة الدكتوراه وله عدة مؤلفات فى العلوم الإنسانية يُردد مقولة أنّ الحضارة المصرية ((حضارة سخرة)) وينظر للأهرام على أنّ ((ألوف البشر ظلوا يعملون عشرات السنين ليُنشئوا قبرًا لإنسان واحد)) انظر: كتابه «الحضارة» دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها – سلسلة عالم المعرفة الكويتية – عدد ٢٣٧ – سبتمبر ١٩٩٨ ص١١) .

إنّ منْ يُروّجون لمقولة أنّ الحضارة المصرية (حضارة سخرة) يتجاهلون الدراسات العلمية التى أكدتْ أنه تم اكتشاف مدينة للعمال ، وتم العثورعلى كشوف بأسماء العمال ، بها بيانات عن كميات الطعام بل والعطورالتى توزع عليهم. والأهرام – فى دراسات علماء علمىْ الآثار والمصريات- معجزة معمارية ، اعتمد المصريون فى تشييدها على علوم الهندسة والفلك والرياضيات . وردًا على إدعاءات السخرة كتب السير(فلندرز بترى) أنّ ((العمل كان يجرى أثناء موسم الفيضان ، أى بين آخريوليو وآخرأكتوبر، وهو الوقت الذى تُزرع فيه الأرض ويكون معظم الأهالى بلا عمل)) وأنّ الأهرامات ((شيّدها بناؤون مهرة وكانوا يسكنون فى مبانى وجدها (بترى) غرب هرم خفرع)) (أنظركتاب «أهرام مصر» تأليف أ. أ. س إدواردز- ترجمة مصطفى أحمد عثمان – هيئة الكتاب المصرية – سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٢٧٢ عام ٩٧ ص ٢١٢ ، ٢١٣) وتؤكد عالمة المصريات (مرجريت مرى) ذات الحقيقة وتُضيف أنّ الملك (= الفرعون) استخدم هؤلاء العمال فى عملية البناء ((وأمدهم بالطعام فى أسوأ فترة من العام ، وأنّ بقايا المستعمرة القائمة حول

هرم خفرع تُشير إلى أنه كان يتعهدهم كذلك بالسكنى . وأنّ هيرودوت ذكر أنّ العمال كانوا يحصلون على الطعام الطيب)) (أنظر كتاب « مصر ومجدها الغابر» ترجمة محرم كمال – هيئة الكتاب المصرية- سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٢٩٠ عام ٩٨ ص ١٣ ، ٣٩ ، ١١٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٤) .

وبينما يرى الأساتذة الدكاترة الأكاديميون (المصريون) أنّ الحضارة المصرية (حضارة سخرة) يرى المتخصصون فى الحضارة المصرية عكس ذلك ، من بينهم (على سبيل المثال) العالم المصرى د. محمود سلام زناتى الذى كتب ((كانت الحرب المصدر للأرقاء بجانب التجار السوريين . وقد تمتّع الأرقاء فى مصر بوضع قانونى واجتماعى يفضل وضعهم فى كثير من المدنيات القديمة ، فقد كان الرقيق ، شأنه شأن الأحرار، يتمتع بحالة مدنية رسمية . فبالنسبة للأمور الجارية ، كان يتخذ اسمًا مصريًا ، وإنْ كان يُسجل فى مكاتب التوثيق باسمه. وكان يتمتع ببنوة شرعية ، حيث كان اسم أبيه واسم أمه يُدونان فى السجل المدنى . كما كانت تُدون جنسيته. وكان يُدون على وثيقة تحقيق شخصيته اسم مالكه أو من تصرّف فيه . ورغم انتشار الرق فى عصر الدولة الحديثة ، لم يبلغ يومًا نسبة مرتفعة إذا قيس بمجموع السكان)) وذكرد. زناتى أيضًا أنّ من بين الشواهد على عدالة الحكام فى مصر القديمة ، ما كتبه ديودور الصقلى الذى ذكر أنّ ((عادة المصريين كانت تجرى فى حالة وفاة أحد ملوكهم ، بأنْ يوضع فى آخر أيام الحداد النعش الذى يضم رفاته أمام مدخل القبر ، وأنْ تُشكل محكمة لتنظر فيما قدّم المتوفى من أعمال فى هذه الدنيا . وأباحوا لمن شاء أنْ يتهمه أمام الكهنة ، فتؤبنه معددة مناقبه وألوف الناس الذين اجتمعوا لتشييعه يُنصتون ويشتركون فى تأبينه ، إذا كان المتوفى قد قضى حقًا حياة مجيدة . أما إذا كانت حياته على العكس وضيعة تصايحت الجماهير)) وأضاف ديودور أنّ كثيرًا من الملوك حُرموا من حق الدفن الرسمى الذى تُخوّله لهم الشرائع نتيجة ((لاعتراض الشعب)) ولهذا ((كان من يخلفونهم على العرش يُقيمون العدل

خوفًا من العار الذى يلحق بأجسادهم بعد الموت ، ومن اللعنة الأبدية كذلك . فالحرمان من الدفن طبقًا للطقوس المرعية ، وما كان يستتبعه ذلك من لعنة أبدية ، كان يُشكل جزاءً يتهدد الملك الذى ينحرف عن الجادة ويسقط فى حمأة البغى والفساد)) وليس عجيبًا أنْ يقول ديودور الصقلى بعد ذلك فى وصف ملوك مصر، من واقع المعلومات التى ترامتْ إليه ((أنهم لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الأخرى ، فيعملون ما يشاؤون تبعًا لأهوائهم ، غيرخاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم ، لا فى حياتهم العامة فحسب، بل فى حياتهم الخاصة ، وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك . وأنّ الملك لم يكن فى قدرته أنْ يقضى فى المخاصمات وفق ميوله الشخصية ، وإنما وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة)) .

وذكرد. زناتى أنه تم العثورفى قبور الأسرة السادسة على بعض النصوص بها اعترافات وزراء هذه الأسرة ، منها ((كنتُ أقضى بين الطرفيْن على نحو يُرضيهما)) ، ((لقد قضيتُ بين الطرفيْن على نحو يُهدّئهما)) كذلك جاء فى نقوش مقبرة أحد وزراء الدولة الوسطى أنه كان يُصدّق على مستندات الحدود ، فيفصل بذلك بين مالك الأرض وجاره ، وأنّ كلماته كانت تُؤلف بين الأخوة ، فيعودون إلى بيوتهم فى سلام . وذكرديودور الصقلى أيضًا أنّ عادة المصريين ((كانت تجرى بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين ، فكانوا يُنتقون من كل مدن هليوبولوس وطيبة ومنف عشرة قضاة ، ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًا للقضاة ، ثم ترسل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه)) وأكد ديودورعلى أنّ النظام القضائى فى مصر القديمة ((عرف نظام الاستئناف أمام محكمة أعلى)) وأنّ ((القضاء فى مصركان مدنيًا ولم يكن دينيًا)) .

أما العالم الكبير(ماسبيرو) فكتب أنّ ((المرأة المصرية من الطبقة الدنيا والمتوسطة أكثراحترامًا وأكثراستقلالا من أية امرأة أخرى فى العالم)) وكتب العالم

(ماكس ميلر) : ((لم يكفل أى شعب قديم أو حديث للمرأة مركزًا قانونيًا مماثلا فى سموه ، كما كفله لها سكان وادى النيل)) وذكر العالم (باتوريه) : ((كل الشعوب القديمة ، فى الغرب كما فى الشرق ، يبدو أنها اجتمعتْ حول فكرة واحدة : أنْ تجعل من المرأة كائنًا أدنى من الناحية القانونية . أما مصر فإنها تعرض لنا منظرًا جد مختلف ، فنحن نجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية ، لها نفس الحقوق وتُعامل بنفس الكيفية)) وبعد أنْ نقل د. زناتى هذه الفقرات من علماء متخصصين فى الحضارة المصرية ، كتب ((لقد تمتعتْ المرأة فى مصر (الفرعونية) بمكانة فى المجتمع والأسرة لم تبلغها المرأة لدى شعب من الشعوب القديمة ، بل فى كثيرمن المجتمعات الحديثة ، فلم يعرف المصريون فكرة انفصال الجنسين ولا حجاب المرأة ، بل كانت المرأة تغدو وتروح فى حرية وتتحدث مع من تشاء وتخرج بين الناس سافرة الوجه . وكانت تُسهم بنصيب كبيرفى الحياة الاجتماعية)) .

وذكرد. زناتى ((فى مصرالقديمة هناك من الدلائل ما تُشير إلى أنّ الزوج والزوجة ، كانا يُعاملان ، بالنسبة للحق فى الطلاق ، على قدم المساوة ، فكانت للزوجة حرية الانفصال عن زوجها ، كما كانت للزوج حرية الانفصال عن زوجته، وذلك عكس الكثيرمن الشرائع القديمة التى لم تكن تُساوى بين المرأة والرجل ، حيث كان الطلاق حقًا مطلقًا للرجل)) وفى مصر القديمة ((فى حالة الطلاق يرد الطرف الراغب فى الانفصال الحقوق المالية للطرف الآخر، لا فرق بين المرأة والرجل)) كذلك فإنّ ((القانون المصرى سمح بزواج الأرامل ، لا سيما من النساء ، وهو أمر كان يُخالف ما جرتْ به بعض المدنيات القديمة التى كانت تحظرعلى الأرملة عقد زواج جديد)) كما أنّ ((القانون فى مصرالقديمة كان يعترف للبنت بحق ميراث يساوى تمامًا حق الابن)) .

وإذا كانت عقوبة الإعدام هى أشد وأغلظ العقوبات لمن يقتل غيره ، فإنّ جدودنا المصريين ابتكروا عقوبة أشد من الإعدام وأكثر قسوة من الإعدام ، خاصة

لمن يقتل أحد الأشخاص من ذوى الرحم ، مثل أنْ يقتل الأب ابنه أو العكس إلخ ، هذه العقوبة الفريدة رصدها ديودور الصقلى الذى ذكر أنّ الأب الذى يقتل ابنه ، لم تكن تُوقع عليه عقوبة الموت ، وإنما عقوبة أخرى هى ((أنْ يحتضن الأب القاتل جثة ابنه القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال تحت إشراف حراس رسميين)) وذكر ديودور أنّ النساء اللائى يقضى ضدهن بالموت ((فإنّ العقوبة لا تُنفذ فيهن اذا كنّ حبالى . وقد نقل كثيرمن مدن اليونان هذا القانون)) وذكرد. زناتى أنه بعد دخول (= غزو) العرب مصر ((أخذتْ المرأة المصرية (المسلمة) تفقد شيئًا فشيئًا من حريتها واستقلالها . أما المرأة القبطية (يقصد المسيحية) فقد ظلتْ محتفظة بحريتها واستقلالها زمنًا غيرقصير)) (لمزيد من التفاصيل أنظر : «تاريخ القانون المصرى فى العصور: الفرعونى والبطلمى والرومانى والإسلامى» تأليف د. محمود سلام زنانى – أستاذ تاريخ وفلسفة القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة أسيوط – ط عام ١٩٨٥ – من ص ٥٠ – ٤٧٤) .

وقد ارتبط بمبدأ العدالة الاجتماعية ، فى الحضارة المصرية ، خاصية أخرى لصيقة بهذا المبدأ ، أى احترام الصغيرللكبير، حتى لوكان الصغيررئيسًا للكبير، وفى هذا السياق جاء فى نصائح الحكيم المصرى (آنى) : ((لا تبقى جالسًا عندما يكون آخر واقفًا ، إذا كان أكبر منك سنًا ، ولو كنتَ أعظم منه مقامًا)) وفى تعميق هذا المعنى الإنسانى النبيل ذكر هيرودوت (القرن الخامس ق. م) والذى زارمصر وقضى بها عدة سنوات ، أنّ المصريين فى زمنه ((كانوا يأخذون أنفسهم فعلا بهذا المبدأ الأخلاقى)) وقال ((يُشبه المصريون أهل (سبرطة) وحدهم دون سائر اليونانيين فى وجه آخر: إذا قابل الصغارمنهم الكبار أفسحوا لهم الطريق وتنحوا جانبًا . وإذا أقبل عليهم الكبار قاموا من مقاعدهم)) (أنظر : هيرودوت يتحدث عن مصر – ترجمه عن الهيروغليفية د. محمد صقر خفاجة – هيئة الكتاب المصرية – عام ٨٧ ص ١٨٦، ١٨٧) وكانت ذروة العدالة فى الحضارة المصرية ، أنّ القانون

الجنائى والمدني فى مصر القديمة ، لم يكن يُفرّق فى العقوبة على أساس الوضع الاجتماعى أو الطبقى للجانى ، بمعنى تطبيق مبدأ المساواة التامة على الغنى والفقير، على الوزير والخفير. وفى هذا السياق ذكر عالم المصريات الكبير جيمس هنرى برستد، أنّ الأساس الخلقى اللازم للعدالة كان معدومًا كلية فى الحضارة البابلية ((حتى أنّ دستور قانون (حمورابى) كان يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى أو المذنب . أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية ، فلم يكن معروفًا فى بابل)) وكان العالم الكبير برستد موفقًا عندما نقل للقارئ المادة المنصوص عليها فى قانون حمورابى التى نصّتْ على ((إنّ كل العقوبات والأحكام القضائية تُدرّج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية)) وكان تعليق برستد ((وهذه الحقيقة تُفسر لنا على الفور، السبب الذى من أجله نعتبر أنّ ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقى فى غربى آسيا ، فى حكم العدم)) أما عن القانون الجنائى والمدني فى مصر القديمة فذكر((إنّ المنزلة الاجتماعية أو المرتبة العالية لم تعط المصرى القديم أية ميزة فى نظر القانون . وكان الفرعون يُنبّه على وزيره الأكبر بألا يُظهر احترامه للأفراد بصفة كونهم أمراء أو مستشارين . أى أنّ هذا المبدأ كان من صلب دستور الدولة المصرية قديمًا . أما عند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التى هى بعينها الأساس الذى يقوم عليه الرقى الخلقى ، ناقصة جدًا ، بل معدومة بالمرة ، وعلى ذلك لم تُساهم مدنيتهم مساهمة جوهرية فى تاريخ آسيا الغربية الخلقى)) (فجر الضمير- ترجمة سليم حسن – مكتبة مصر- دار مصر للطباعة – سعيد جودة السحار وشركاه – وهيئة الكتاب المصرية – مكتبة الأسرة عام ٩٩- ص ٣٣ ، ٢٣٦ . ٣٦٨) .

***

وبينما نجد علماء علم المصريات يُجمعون على تطبيق مبادئ العدالة فى الحضارة المصرية ، نجد – فى نفس الوقت – أنّ مؤرخى الحضارات القديمة ، يُجمعون على

أنّ الحضارات القديمة التى تزامنت – نسبيًا – مع مصر لم تعرف مبادئ العدالة بين مواطنيها . وفى هذا السياق ذكر العالم المصرى د. إمام عبدالفتاح إمام: أنّ من العيوب الخطيرة فى النظام السياسى والاجتماعى فى أثينا : (١) لم يكن مفهوم الشعب مُحددًا تحديدًا صحيحًا ، بل اقتصر الأمر على الأثينيين واستبعد الأجانب والرقيق (= العبيد) والنساء (٢) لم تكن الحرية الشخصية مكفولة (حرية الانتقال وحرمة المسكن وحق الأمن) (٣) حرية الفرد بالمعنى الدقيق لم يكن لها وجود (حرية العقيدة – الملكية.. إلخ) ذلك أنّ ((الدولة كانت تُسيطرعلى الأفراد سيطرة تامة ، فلابد للفرد أنْ يعتنق دين الدولة ، كما أنّ أملاك الفرد وثروته لابد أنْ تكون تحت تصرف الدولة. كما أنّ اليونان فهموا معنى مصطلح (الشعب) فهمًا قاصرًا ، فجعلوه يعنى مجموع المواطنين الأثينيين الذكور الأحرارممن بلغوا سن العشرين ، وبذلك أخرجوا النساء والمقيمين والعبيد من مفهوم الشعب . بل إنّ أفلاطون فهم الشعب فى النظام الديمقراطي على أنه مجموع الغوغاء أو الدهماء ومن على شاكلتهم . ولهذا السبب كان حكم الشعب عند اليونان ذا تطبيق محدود جدًا ، فلم تكن السلطة السياسية فى الواقع فى يد الأغلبية ، وإنما كانت فى يد المواطنين (الأحرار) وحدهم ، وهم فئة محدودة لاتتجاوز عُشرسكان المدينة فى بعض الروايات على أحسن الفروض . وهذا الفهم القاصر ذاته لمصطلح (الشعب) هو الذى ساد الديمقراطية الرومانية ، إذْ كان المواطن الرومانى الحر الذكر هو وحده الذى يحق له الاشتراك فى إدارة شؤون الدولة السياسية. وفضلا عن ذلك ، فقد استطاعتْ الإمبراطورية الرومانية أنْ تُخضع لسيطرتها الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ ، وأنْ تُحوّل أسرى الحروب إلى عبيد ، بل أنْ تُحوّل أعدادًا غفيرة من أبناء الشعوب المهزومة إلى عبيد . وكانت النتيجة أنْ بلغ عدد العبيد فى الإمبراطورية الرومانية عام ٢٤ ق. م نحو ٢٠ مليون نسمة مقابل ٢١٤ ألف نسمة فقط من المواطنين «الأحرار»)) .

فى هذا النظام الاجتماعى والسياسى ، الذى ميّز بين أبناء الشعب الواحد وقسّمهم إلى (أحرار) و(عبيد) كان من الطبيعى أنْ يُباع الفيلسوف أفلاطون فى سوق العبيد فى عهد الطاغية (ديونسيوس) وشاء قانون المصادفة أنْ يتعرّف أحد تلاميذ أفلاطون عليه ، فاشتراه وأعتقه. ورغم ذلك فإنّ أفلاطون (الفيلسوف الكبير) يعتبر الديمقراطية من ((أنظمة الحكم الفاسدة ، وجعلها تحتل المكانة قبل الأخيرة فى دورته لأشكال الحكومات الفاسدة ، بل جعل الطغيان – وهو أشد أشكال الحكم فسادًا وسوءًا – نتيجة مباشرة للديموقراطية)) كما هاجم أفلاطون فكرة المساواة (بين المواطنين) رغم أنّ المساواة واحدة من أهم أركان الديموقراطية. أما أرسطو(الفيلسوف الكبير) فهو((يُحذر من مخاطر الديمقراطية ويؤكد أنها نظام من الحكم يؤدى إلى عدم الاستقرار السياسى)) .

وفى ضوء ما تقدم كان من الطبيعى أنْ يكون عدد (العبيد) أكبرمن عدد (الأحرار) ولذلك يرى الفقيه القانونى الفرنسى (بارتلمى) فى كتابه (القانون الدستورى) أنّ عدد العبيد كان يبلغ فى مدينة أثينا ٢٠٠ ألف ، فى حين أنّ عدد المواطنين (الأحرار) لم يكن يزيد على ٢٠ ألفًا ، أى أنّ عدد العبيد يبلغ عشرة أمثال عدد المواطنين (الأحرار) (د. عبدالحميد متولى – الوجيز – حاشية رقم ٢٣) وجاء فى مدونة (جوستنيان) أنّ عادة أمراء الجيوش جرتْ بعدم قتل الأسرى إبقاءً على حياتهم ، وهؤلاء يُطلق عليهم ((مِلك اليمين)) أو يُباعون إلى الغير باعتبارهم عبيدًا أو يكون الشخص عبدًا بمولده (مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى ، نقلها إلى العربية عبدالعزيز فهمى – عالم الكتب بيروت – ونقلا من جانبى عن د. إمام عبدالفتاح إمام – الديموقراطية والوعى السياسى – نهضة مصر – يناير٢٠٠٦ – الصفحات ١٦، ٢٤، ٣٧، ٦٠، ٦٣، ٧٨، ٧٩، ١١١) فى هذا الواقع الاجتماعى والسياسى الذى شهدته اليونان القديمة وروما القديمة ، الواقع الذى وضع البذرة الضارة للتمييز بين البشر على أساس الثنائية الشريرة (عبد / سيد) فى هذا الواقع

اللاإنسانى لم تكن مصادفة أنْ يتم (صلب) ستة آلاف إنسان وصمتهم روما ب (العبيد) وذلك على طول الطريق من كابو capual إلى روما بعد (النصر) الرومانى (أنظر: أثينا إفريقية سوداء- تأليف مارتن برنال – مجموعة مترجمين – المجلس الأعلى للثقافة- عام ٩٧ ص ٧٠٥) وهوالواقع الذى لم تعرفه الحضارة المصرية بشهادة علماء علم المصريات وشهادة المؤرخين الذين زاروا مصر القديمة وعاشوا فيها لعدة سنوات . وبينما تم فى اليونان إعدام الفيلسوف سقراط ، وبيع الفيلسوف أفلاطون ، فإنّ علماء علم المصريات والمؤرخين توقفوا عند ظاهرة غاية فى الأهمية ، وهى أنّ الحضارة المصرية ، لم تعرف أى شكل من أشكال اضطهاد الحكماء (= فلاسفة) مثلما حدث فى اليونان ، رغم العثورعلى برديات تنتقد فكرة (الآلهة) بل وتتشكك فى وجودهم (برستد – فجرالضمير- مصدرسابق – ص ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٧) بل أكثرمن ذلك شهدتْ الحضارة المصرية فترة أطلق عليها عالم المصريات الكبيرأدولف إرمان ((عهد الإلحاد)) (أنظر: ديانة مصرالقديمة – ترجمة د. عبدالمنعم أبوبكر، د. محمد أنورشكرى – مكتبة الأسرة – عام ٩٧ ص ١٢٦ ، ٣٩٣، ٤٤٧) وعن التشكيك فى الآلهة المصرية نقل الشاعر د. حسن طلب عددًا من النصوص المصرية من واقع البرديات التى تؤكد على وجود (فلسفة مادية) لاتؤمن إلاّ بظواهر الطبيعة والواقع (انظر رسالته للدكتوراة فى كتابه «أصل الفلسفة- حول نشأة الفلسفة فى مصر القديمة- وتهافت نظرية المعجزة اليونانية- » عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- عام ٢٠٠٣ من ص ١٥٦- ١٦٢) ومع ذلك لم يحدث أنْ تم إعدام أحد من هؤلاء المتشككين فى وجود الآلهة المصرية ، بينما تم إعدام الفيلسوف سقراط بتهمة ازدراء الآلهة اليونانية والترويج لآلهة أجنبية ، الآلهة المصرية تحديدًا ، وهو الأمرالذى جعل أدولف إرمان أنْ يكتب أنّ ((الآلهة اليونانية قد تمصّرتْ)) (المصدرالسابق – ص ٤٣٧) فإذا كان هذا هو المشهد الحضارى فى مصر، فلماذا يُصركتاب (مصريون) على وصف الحضارة المصرية بأنها (حضارة

سخرة) ؟ هل هناك سبب آخر غير فقدان الانتماء لتراثهم وغير درجة عالية من الدونية القومية ، أفقدتهم الحد الأدنى من الموضوعية (ناهيك عن الحس القومى) وذلك عكس (كل) الكتاب فى (كل) دول العالم ؟ إنّ (الموضوعية) و(الحس القومى) لا غنى عنهما لأى باحث تكون (الحقيقة) هى قبلته الوحيدة ، ولأنّ الشاعر حسن طلب امتلك الموضوعية والحس القومى ، لذلك ذكر أنّ الحضارة المصرية لم تعرف السخرة ، ولم تعرف عبودية الشعب للفرعون (= الملك فكتب ((إنّ التاريخ الحضارى المصرى يُكذب هذا الوصف ، ويجعلنا نقطع بأنّ المصريين ، حتى فى أدنى طبقاتهم ، لم يكونوا مجرد عبيد للفرعون ، والبحوث التى تشيع عكس ذلك مغرضة ، أو هى على الأقل غير خالصة لوجه العلم)) (د. حسن طلب - مصدر سابق - ص ٢٩) وإذا كنتُ أستبعد مخاطبة أصحاب الأفكار سابقة التجهيز، فإننى أتوجه إلى أصحاب العقول الحرة المتجردة من أية أيديولوجيات ، ليقرؤوا معى ما كتبه الفيلسوف أفلاطون فى (الجمهورية) ورأيه فى الحرية حيث نص على ((إنّ أقصى ما تصل إليه الحرية من تطرف فى مثل هذه الدولة (= المدينة الفاضلة التى كان يطمح فى وجودها) هى أنْ يعدو العبيد من الرجال والنساء ، الذين يُشترون بالمال ، متساوين فى حريتهم مع ملاكهم الذين اشتروهم)) وكان د. فؤاد زكريا الذى ترجم (جمهورية أفلاطون) على حق عندما ذكر فى الهامش ((كان العبيد فى أثينا يتمتعون بحرية نسبية ، تفوق تلك التى كانوا يتمتعون بها فى سائر مدن اليونان . ولنلاحظ جيدًا أنّ أفلاطون يحمل بشدة على هذا النوع من الحرية ، مؤكدًا أنه أسوأ مظاهر الديمقراطية)) (جمهورية أفلاطون - ترجمة د. فؤاد زكريا - المؤسسة العامة للتأليف والنشر - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - عام ١٩٦٨ - ص ٣١٤) هذا هو الوضع فى أثينا ، التى يُسبّح بعظمتها كثيرون من (المصريين) الذين يُهاجمون الحضارة المصرية ، حضارة جدودهم ، ويتهمونها بالعبودية ، دون أى دليل من علم المصريات أو علم اللغويات ، وإنما بتأثير التراث العبرى المعادى لمصر.

كما نجد أنّ المسئول عن ملحق الجمعة بصحيفة الأهرام يوافق على نشر (نص) مسرحي لا علاقة له بالإبداع الأدبي لأحد الكتاب بعنوان (محاكمة فرعون) وهذا الـ (نص) كله إساءة للفرعون (الجد الأعلى والرمز القومي لكل المصريين) والكاتب لايُفرق بين ما هو ديني وما هو تاريخي ، في عمل – المفترض أنه عمل أدبي – وتكون قمة المأساة أنْ يكون ممثل الدفاع عن الفرعون هو (أبوبكر محمد الحاتمي الطائي المعروف باسم ابن عربي) (صحيفة الأهرام ٤/ ١٢/ ٩٨) .

أما الضابط اليساري (يوسف صديق) الذي كان السبب في نجاح انقلاب يوليو ٥٢ وأحد الذين غدر بهم عبدالناصر الذي أمر باعتقاله واعتقال السيدة زوجته وبعض أقاربه . انتقل يوسف صديق من سجن الأجانب إلى السجن الحربي ، وفي المعتقل شعر الرجل بمرارة الغدر، ولأنه كان يُجيد كتابة الشعر، كتب قصيدة وصف فيها عبد الناصر بالدعي اللعين ، المضلل ، الجبار، الذي سجن النساء ولم يحترم وقار الشيوخ . وتكون ذروة إحساسه بالمراة وهو يكتب :

أعرضي يباح ويُلقى به على ناظريك بقاع السجون

وكل رجالي غدرت بهم أكل رجالي من المجرمين ؟

والقصيدة كلها ترجمة ذاتية لأحاسيس ومشاعر الرجل (يوسف صديق) تجاه عبد الناصر الذي أحكم قبضته على الحكم وغدر بالشرفاء أمثال يوسف صديق وخالد محيي الدين ، فكتب يوسف صديق هذه القصيدة في السجن الحربي في شهر يونيو ٥٤ عن هذا الحاكم الطاغي (عبدالناصر) ويختار لقصيدته عنوان (فرعون) ثم يستخدم هذا الرمز ثلاث مرات في أبيات القصيدة ، قارنًا عبدالناصر الطاغي بالفرعون (الطاغي الأعظم) (انظر كتاب « أوراق يوسف صديق» – هيئة الكتاب المصرية – ص ٢٧٨) .

أما عبدالناصر الذي شبّهه يوسف صديق ب (الفرعون) فإنه يُعلن أنه بريء

(ومعه الشعب المصرى كله) من هذه التهمة (الفرعونية) حيث وقف أمام الشعب السورى فى ساحة الجلاء ، أمام قصر الضيافة فى دمشق يوم ٩ مارس ٥٨ ليقول: ((كنا نشعر بكم فى هذه المنطقة من العالم وقد عزلونا عنكم وأرادوا أنْ يُقيموا فى مصر بلدًا يتنكر لعروبته وينتمى إلى الفرعونية)) وفى خطاب ٢٢/ ٧/ ٥٩ قال – والعالم كله يسمعه – ((واستطعنا أنْ نرى أنّ الدعوة الفرعونية التى حاول الاستعمار(هكذا) أنْ يبثها بيننا ضمن الدعوات الأخرى التى حاول أنْ يبثها بين الأمة المصرية (لاحظ – عزيزى القارئ – التناقض) إنما هى محاولة زائفة يحاول الاستعمار بها أنْ يُقسّم الأمة العربية ليقضى عليها جزءًا جزءًا ويقضى على العرب والقومية العربية ليحل محلها قوميات أخرى)) (مجلد مجموعة خطب عبدالناصر القسم الثانى – فبراير٥٨ إلى يناير١٩٦٠ – طبعة مصلحة الاستعلامات ص ٥٥ ، ٤٦٨) .

***

كان عبدالناصر صريحًا ومباشرًا وهو يُعلن عداءه للشيوعيين (مصريين ولبنانيين وسوريين وعراقيين) وكانت المفردات التى استخدمها فى كل خطبه لاتخرج عن المعانى التالية : إنّ الشيوعيين عملاء لتعاونهم مع الاستعمار والصهيونية (وهى تهمة عقوبتها الإعدام) وفى خطاب ٢٣/ ١٢/ ٥٩ (المصدرالسابق من ص ٦٩٣ – ٧٠٥) استخدم صيغته المفضلة ((الشيوعيين العملاء)) ٢٦ (ستة وعشرين مرة) أما باقى المفردات فهى إطلاق الصفات التى تمس الكرامة الإنسانية مثل الوضاعة والسفالة .. إلخ ووفقًا للمصدر السابق الصادرعن مصلحة الاستعلامات ، فإنّ الصفحات التى هاجم فيها الشيوعيين تعدت الأربعين صفحة ، مع ملاحظة أنّ هذه الصفحات تُغطى الفترة من فبراير٥٨ إلى يناير١٩٦٠ فقط .

كان من الطبيعى أنْ يكون للشيوعيين الشرفاء الذين تعرّضوا للاعتقال

والتعذيب فى معتقلات عبدالناصر، أنْ يكون لهم موقف من هذا الحاكم المستبد المعادى لأبسط حقوق الإنسان ، أى حقه فى الاعتقاد . فكيف وصف (بعض) الشيوعيين عبدالناصر؟ فى شهادته عن تجربة اعتقاله فى سجن القلعة ، ذكر الشاعر أحمد فؤاد نجم (المتهم بالانتماء لأجد التنظيمات الشيوعية) أنه اكتشف وجود كتابات محفورة على جدران الزنزانة . كان من بينها العبارات التالية ((إنّ غدًا لناظره قريب)) ، ((لينصرن الله من ينصره)) ، ((إنّ فرعون علا فى الأرض)) وكتب أحمد فؤاد نجم أنه بدأ يتعرف على سكان المكان (أى زملائه الشيوعيين) من هذه الكتابات المحفورة على جدران الزنزانة ، والتى من بينها ((إنّ فرعون علا فى الأرض)) (انظر نص الشهادة- صحيفة الميدان ٩/ ٢/ ٩٩ ص ٧) .

إنّ درس علاقة عبدالناصر ببعض الشيوعيين (أو العكس) يؤكد أنّ ثمة لغة مشتركة جمعت بين الجلاد والضحية ، وكانت هذه اللغة المشتركة هى احتقار الذات القومية ، وتمثل ذلك الاحتقار فى شخص جدهم الأعلى فرعون (أيًا كان اسمه) وبمراعاة أنه جد كل المصريين .

كذلك يحلو لكاتب كبير كما تصفه الثقافة السائدة أنْ يُردد (بين الحين والحين) مزاعم بنى إسرائيل المعادية للمصريين ، فكتب أنّ ((النبى موسى عليه السلام خرج بقومه اليهود هاربًا إلى سيناء ، بعد أنْ قتل مصريًا انتقامًا لواحد يهودى)) وذكر أيضًا أنّ رمسيس الثانى قتل كل أطفال اليهود إلاّ واحدًا)) (انظر على سبيل المثال – صحيفة الأهرام ٦/ ٣/ ٩٩ ، ٦/ ٤/ ٩٩) .

إنّ هذا المثال يُثير التساؤل التالى : لمصلحة من التركيز (فى صحيفة سيارة واسعة الانتشار) على تشويه صورة الفرعون العظيم رمسيس الثانى ، وتقديمه للقارئ على أنه سفاح لا يتورع عن قتل الأطفال ، فى خلط متعمد بين ما هو دينى وما هو تاريخى . بل إنّ هذا الصحفى (الكبير) عندما كتب عن واقعة أنّ موسى قتل مصريًا انتقامًا لواحد يهودى فهو يتبنى التراث العبرى ، ويُردد ما جاء فى العهد القديم ، حيث

نص على ((وحدث فى تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم، فرأى رجلا مصريًا يضرب رجلا عبرانيًا من إخوته ، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنْ ليس أحد فقتل المصرى وطمره فى الرمل)) (خروج ٢ : ١١ - ١٣) والسؤال الذى لم يتوقف أمامه هذا الكاتب الصحفى (الكبير) هو : إذا افترضنا صدق ما جاء فى العهد القديم ، وأنّ المصرى كان يضرب العبرانى ، فهل مجرد (الضرب) يُبرر القتل ؟ خاصة وأنّ القاتل نبى مرسل من الإله العبرى ؟ كما أنّ هذا الصحفى بتبنيه لنصوص العهد القديم ، زايد على ما جاء فى القرآن العظيم ، إذْ جاء فيه عن موسى ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص:١٥] ففى هذه الآية الكريمة لانجد أى ذكر لحكاية أنّ ((رجلا مصريًا يضرب رجلا عبرانيًا)) كما جاء فى العهد القديم ، وإنما مشاجرة بين رجلين ، كما أنّ موسى شعر بالندم بعد أنْ قتل المصرى ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص :١٥ ، ١٦] بل وأكثر من ذلك ما جاء فى سورة طه ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٤٠] وذكر الإمام أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى أنّ موسى عندما دخل المدينة وجد رجلين يقتتلان ، أحدهما من شيعة موسى ، أى من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط . قال (موسى) ربّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفرلى فغفرله إنه هو الغفور الرحيم . فأصبح (موسى) يترقب خائفًا أنْ يؤخذ ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه أى يستغيثه (قال له موسى إنك لغوى مبين) ثم أقبل لينصره فلما نظر إلى موسى قد أقبل نحوه ليبطش بالرجل الذى يُقاتل الإسرائيلى قال الإسرائيلى ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (تاريخ الطبرى المعروف بتاريخ الأمم والملوك – مؤسسة الأعلمى للمطبوعات – بيروت – لبنان – ط ٤ عام ١٩٨٣ ج ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨) السؤال الثانى هو : لماذا يُزايد صحفى (مصرى) على القرآن

العظيم وعلى ما ذكره الطبرى فى تاريخه ، ويتوقف بصفة خاصة أمام العهد القديم ، مُردّدًا ما ذكره أنّ موسى قتل المصرى انتقامًا لواحد يهودى ؟ مع ملاحظة أنّ الصياغة فى التوراة غامضة ، حيث أنّ النص لم يذكر أسباب الانتقام .

والسؤال الثالث هو : لماذا يُردد صحفى (مصرى) أنّ رمسيس الثانى قتل كل أطفال اليهود فى تبنى واضح لأكاذيب بنى إسرائيل ؟ ولايذكر (مثلا) ما جاء فى سفر التثنية ((وهو الكلام الذى كلم به موسى جميع إسرائيل)) (الإصحاح الأول) ففى هذا السفر يقول موسى لبنى إسرائيل أنه عند الدخول إلى مدينة لمحاربتها وقبلتْ الصلح ، فإنّ أبناء الشعب المغزو يتحولون إلى عبيد لبنى إسرائيل . أما فى حالة رفض الصلح ، يقول موسى ((وإنْ لم تُسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها . واذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك)) (تثنية ٢٠ : ١٠ - ١٥) ولماذا لم يذكر ((وكلّم الرب موسى قائلا احص النهب المسبى من الناس والبهائم ، أنت وألعازر الكاهن ورؤوس آباء الجماعة ، ونصّف النهب بين الذين باشروا القتال)) (عدد ٣١ : ٢٥ - ٢٨) ولماذا لم يذكر التحريض الصريح على سرقة المصريين (خروج ٣ : ١٨ - ٢٢) وآيات التحريض على القتل والسلب والتخريب فى العهد القديم يصعب حصرها خشية التكرار، وإنما ذكرتُ الأمثلة السابقة لأعيد صياغة السؤال : لماذا تحرص الثقافة السائدة (والأستاذ الصحفى جزء منها) على تصوير ملوك مصر (الفراعنة وفق التعبير العبرى) على أنهم قتلة أطفال اليهود ؟ ولماذا لم يُفكر كتاب تلك الثقافة فى رد فعل أحفاد بنى إسرائيل المعاصرين وهم يقرأون هذا الكلام ؟ ولماذا لا يُشير هؤلاء الكتاب إلى أنّ العهد القديم به آيات عديدة تنص صراحة على أنّ إله العبريين (قتل كل بكر فى أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم) (خروج ١٢ : ٢٩ ، خروج ١٣ : ١٥ ومزمور ٨٧ : ٥١) وهى مجرد أمثلة بالطبع .

فى عام ١٩٥٤ أنتجت السينما الأمريكية فيلم (الوصايا العشر) من إخراج سيسل دى ميل ، وهو تكرارفج للأيديولوجيا العبرية المعادية للحضارة المصرية . ومنذ ذلك التاريخ لم تُقدّم السينما المصرية فيلمًا واحدًا يرد على أكاذيب وفجاجة سيسل دى ميل ، وإنما شاهد المصريون (وبالطبع شعوب أخرى) فيلم (المهاجر) من إخراج (مصرى) تصفه الثقافة السائدة بالمخرج العبقرى ، ومع ذلك فإنه لم يفعل شيئًا مختلفًا عما فعله دى ميل ، وإنما قلّده تقليدًا حرفيًا وتبنى توجهاته ، وليته اكتفى بذلك ، إنما زايد عليه .

إنّ بطل فيلم المهاجر(رام) يُمثل شخصية يوسف بن يعقوب (وهو ما تؤكده التترات باللغة الفرنسية) والفيلم تكرارفج لأكاذيب بنى إسرائيل كما وردت فى العهد القديم ضد مصر، فالمصريون فى الفيلم وحوش ، تُعبر وجوههم عن القسوة وفى أيديهم السياط ، والفرعون أبله والفنان المصرى مصاب بداء اللواط (وهى عادة عبرية ولم تعرفها الحضارة المصرية ، ومارسها العبريون باعتراف كتابهم الذى يُقدّسونه) وفى المقابل فإنّ رام (= النبى يوسف) هو الذى علم المصريين الزراعة . ويُركزالفيلم على أنّ ثمة قطعة أرض عجزالمصريون عن زراعتها ، فإذا ب (رام / يوسف) هو الذى يقود فريق العمل ، وفى نهاية الفيلم تنجح خطته العبقرية ، وتتحول الصحراء الجرداء إلى جنة خضراء بفضل عبقرية رام / يوسف . فى إسقاط واضح على ما فعله الإسرائيليون فى سيناء بعد إحتلالها عقب كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ ، وبالتالى فإنّ رسالة الفيلم هى : أنه لامفر من الاستعانة بالخبرة الإسرائيلية ولا بأس من العمالة المصرية .

إنّ مخرج فيلم المهاجر زايد على ما جاء فى العهد القديم وعلى ما جاء فى القرآن العظيم ، إذْ لايوجد أى ذكر فيهما على أنّ يوسف علّم المصريين الزراعة ، وإنما كان دوره فى (هذين المصدرين اللذين اعتمد المخرج عليهما متجاهلا المراجع العلمية والمؤرخين المعاصرين للأحداث وعلم المصريات) هو تخزين الغلال فقط لمواجهة

سنوات القحط ، ففى القرآن العظيم ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف] وفى شرحه لهذه الآية الكريمة ذكر الطبرى ما يلى ((فى قوله (أى يوسف) اجعلنى على خزائن الأرض ، قال على حفظ الطعام ، إنى حفيظ عليم ، يقول إنى حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة فولاه الملك ذلك)) (المصدر السابق ج١ ص ٢٤٣) وهو ذات المعنى الذى ورد فى العهد القديم (تكوين ٤١ : ٣٣ – ٣٦) .

يقول المثل الشعبى ((فاقد الشىء لا يُعطيه)) فإذا كان يوسف ، باعتراف العهد القديم ، مجرد راعى غنم (تكوين ٣٧ : ٢) فإنّ السؤال هو : كيف يُمكن مخاطبة العقل البشرى فى العصر الحديث وإقناعه بالتزوير(وهوتزوير ضد النصوص التى اعتمدها المخرج وضد وقائع التاريخ وضد المنهج العلمى) بأنّ راعى الغنم علّم الزراع الزراعة ؟

إنّ التوجه الأيديولوجى يختلف عن لغة العلم ، كتب أ. شفيق مقارأنّ ((سجلات التاريخ توقفنا على أنّ المصريين لم يعرفوا نظام صوامع الغلال وتخزين الغلال من أقدم العصور فحسب ، بل وعرفوا أيضًا نظام تخزين المياه ، والمثال الحى على ذلك فرعون الأسرة الثانية عشر أمنمحوتب الثالث (١٩٥٩ – ١٩١٠ ق .م) وخزان المياه العظيم فى منخفض الفيوم . أما الحبوب – كالذرة والشعير، لا القمح وحده– فهذا ما كان المصريون يفعلونه فيما يخصها ، منذ عهد المملكة القديمة)) ونقل أ. مقارعن عالم المصريات الكبير أدولف إرمان ما يلى ((فى نهاية الحصاد ، كان مستخدمان من مستخدمى المزرعة ، هما (كاتب الصوامع) و(كيّال الغلال) يأتيان وبعد أنْ يؤدى كل منهما عمله ، فيكيل الكيّال أكوام الغلال ، ويقوم كاتب الصوامع بتسجيل ذلك . كانت الغلال تؤخذ إلى الصوامع ، وكانت الصوامع – على مرالعصور – تُبنى على نفس النسق)) وأضاف إرمان أنّ ((المصريين كانوا يزرعون الخضر. وقد ذكرالعهد القديم على ألسنة الخارجين من مصرعندما جاعوا

فى القفر وافتقدوا قدورااللحم والسمك وغيره مما كانوا يأكلونه فى أرض مصر (مجانًا) وأنّ المصريين زرعوا مختلف الخضروات والقثاء والبصل والثوم والبطيخ)) وكان تعقيب أ. مقار((فالمصريون- كما ترى- لم يكونوا بحاجة إلى عبد عبرانى من البدو الرحل الرعاة كيوسف ليُعلّمهم (حكمة) تخزين الغلال فى سنى الوفرة ، ليكون لديهم احتياطى منها فى سنى الشح ، وهم الذين أعطوا العالم أول حضارة عرفها التاريخ عندما تعاملوا ، فى وطن مستقر مع النيل ، وعرفوا أهمية السياسة الزراعية وسياسات أخرى)) (شفيق مقار- المصدرالسابق – ص ٨٩) .

إنّ فيلم المهاجر يُجسّد مأساة الهجوم على الحضارة المصرية ، هجوم لم يعد قاصرًا على الميديا الصهونية (سيسل دى ميل ، ستيفن سبيلبيرج وغيرهما) وإنما يأتى الهجوم من فنان مصرى ، كان تاريخ السينما المصرية ينتظرمنه أنْ يرد على المخرجيْن المذكوريْن ، فإذا به يمشى وراءهما ، مردّدًا أكاذيب بنى إسرائيل . كنا ننتظرمن المخرج (المصرى) أنْ يرد على هذه الأكاذيب ، خاصة أنّ فيلم (الوصايا العشر) الأمريكى يزيد الجرح إيلامًا ، فهذا الفيلم تم تصويره فى مصرعام ١٩٥٤ (أى بعد انقلاب يوليو بعامين) وأنّ ((مجاميع الكومبارس كانت من جنود الجيش المصرى)) (نقلا عن الناقد السينمائى أ. مصطفى درويش فى كتابه أربعون سنة سينما- صندوق التنمية الثقافية-عام ٢٠٠٣ ص ١٠١) والدرس هنا أنّ ضباط يوليو تصرّفوا مع الشركة المنتجة لفيلم (الوصايا العشر) بأحد احتمالين لاثالث لهما: الأول تكليف أحد المختصين بقراءة ومراجعة سيناريو الفيلم ومتابعة تصوير المشاهد ومراحل تنفيذ الفيلم وبالتالى وافقوا عليه ، وإما أنهم لم يهتموا أصلا (سواء بقراءة السيناريو أو الاطلاع على مضمون الفيلم إلخ) مع أنّ هذا حق أصيل لمصر بمراعاة أنّ التصويرتم على أرضها ، ومع ذلك سمح ضباط يوليو باستخدام جنود الجيش المصرى فى فيلم معادى للمصريين . وأيًا كان أحد الاحتمالين ، فإنّ المسئولين فى هذه الفترة الحالكة من تاريخ مصر، قد شاركوا فى ارتكاب جريمة

إنتاج فيلم أمريكى تعمّد صانعوه تشويه الوجه الحضارى لمصر. وإذا المخرج المصرى (العبقرى) لم يُفكرفى الرد على أكاذيب سبيلبيرج مخرج فيلم (أميرمصر) أو على أكاذيب سيسل دى ميل مخرج فيلم (الوصايا العشر) فإنّ عالمة المصريات (الفرنسية) الكبيرة كريستين نوبلكلور ذكرتْ فى كتابها عن (رمسيس الثانى) والذى طبع منه مليون نسخة ((عندما أرى أفلامًا مثل (الوصايا العشر) تُصوّر المصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين، أشعر بالغضب. فهذا كذب وافتراء)).

***

وقرأتُ هجومًا من كاتب سيناريو مصرى على فيلم (أميرمصر) ولكن انصبّ هجومه على استبعاد أنْ يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج فكتب أنّ ((فرعون الخروج هو الفرعون السادس من ملوك الهكسوس تحديدًا)) (أهرام ٦/ ٣/ ٩٩) أى أنّ هذا السيناريست (المصرى) يعتبر الدفاع عن الوطن وطرد اليهود الذين احترفوا الجاسوسية لحساب الهكسوس ضد مصر، وصمة عار يجب نفيها عن الفرعون المصرى، ويُقدّم هذا الشرف للهكسوس. وهنا تجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية:

* لم يستقرعلماء المصريات على اسم الفرعون الذى طرد بنى إسرائيل من مصر.

* الفرعون (أيًا كان اسمه) الذى طرد بنى إسرائيل من مصر، هو واحد من الملوك العظام، ويجب على كل مصرى أنْ يفخربه للأسباب التالية:

سمح بسماتيك الأول لليهود أنْ يتدفقوا على مصر، وأنْ يُنشئوا لأنفسهم مستعمرة خاصة بهم، بل سمح لهم أنْ يُقيموا معبدًا لإلههم (يهوه) بل إنه بفضل تسامح المصريين ورحابة صدورهم، عاش اليهود فى مصر(أنظرد. محمد بيومى مهران- تاريخ الشرق الأدنى القديم- دار المعارف بمصر عام ١٩٧٦ ج ٣ ص

٣٢٥ ، ٣٨٤) بعد هذا العطاء والتسامح من المصريين ، ماذا حدث ؟ ((وهكذا انتهت الأمور باليهود أنْ نسوا لمصر أنها أطعمتهم من جوع وآوتهم من تشرد وكستهم من عرى ، فردوا لها الجميل نكرانًا ، وكانوا عليها للفرس أعوانًا وفى حاميتهم جنودًا)) وكان لابد أنْ تزداد كراهية المصريين لليهود ((بعد أنْ رأوهم بعد أطول إقامة فى البلاد خونة وجواسيس ومثار فتن ودسائس وأذنابًا لأعداء البلاد)) (د. محمد بيومى مهران – المصدر السابق ص ٣٨٠) .

يمتلئ العهد القديم بالتناقض بين اعتراف بنى إسرائيل بفضل مصر عليهم وبين العداء لمصر وشعبها . فنجد أنّ (كل) جماعة بنى إسرائيل تتذمر ضد موسى وهارون والسبب ((وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذْ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزًا للشبع)) (خروج ١٦ : ٢ ، ٣) وكذلك ((فعاد بنو إسرائيل وبكوا وقالوا منْ يُطعمنا لحمًا . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم)) وأيضًا ((إنه كان لنا خير فى مصر)) وأكثر من ذلك ((أليس خيرًا لنا أنْ نرجع إلى مصر)) (عدد ١١ : ٤ – ٦ ، ١٨ عدد ١٤ : ٣ وأنظر أيضًا عدد ٢٤ ، ٢٥) هذا الاعتراف الصريح من بنى إسرائيل بفضل مصر عليهم ، يقابله عداء بشع ضد مصر والمصريين ، وليس له أى تبرير على المستويين التاريخى والإنسانى ، من ذلك – كمثال – ما جاء فى سفر حزقيال ((وتكون أرض مصر مقفرة وخربة ، فيعلمون إنى أنا الرب ، وأجعل أرض مصر خربًا خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تُخُم كوش . وأجعل أرض مصر مقفرة فى وسط الأراضى المقفرة ومدنها فى وسط المدن الخربة تكون مقفرة أربعين سنة وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهم فى الأراضى .. إلخ)) حزقيال ٨-١٦ .

هؤلاء هم بنو إسرائيل ودورهم المخرب والمعادى لمصر باعتراف كتابهم الذى يقدسونه ، واذا كان البعض لايؤمن إلاّ بالمرجعية الدينية ، فها هو العهد القديم ينص على ((ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين ،

على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دمًا ، فيكون دم فى كل أرض مصر، فى الأخشاب وفى الأحجار)) وبعد أنْ أطاع موسى وهارون أمر ربهما العبرى ((تحوّل كل الماء الذى فى النهر دمًا ومات السمك الذى فى النهر وانتن النهر فلم يقدرالمصريون أنْ يشربوا ماءً من النهر . وكان الدم فى كل أرض مصر)) (خروج ٧ : من ١٩ – ٢٢) .

والإله العبرى المنحاز لبنى إسرائيل لم يكتف بأنْ جعل الدم فى كل أرض مصر، وإنما أطلق الضفادع والبعوض والدمامل والجراد و(الذبان) إلخ على كل المصريين ، ليس فى الحقول والنهر فقط ، وإنما داخل البيوت وفوق المخادع والأسرّة (أى فى غرف النوم) هذا بخلاف قتل مواشى المصريين لأنّ الرب ((يُميّز بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين)) (خروج ٩) .

هذا الانحياز لبنى إسرائيل من الإله العبرى وصل لدرجة القضاء على كل المصريين ((فدفع الرب المصريين فى وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيوش الفرعون الذى دخل وراءهم فى البحر، لم يبق منهم ولا واحد)) (خروج ١٤ : من ٢٦- ٣١) وكذلك ((قال موسى يقول الرب إنى نحو نصف الليل أخرج وسط مصر فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر لم يكن مثله ولن يكون مثله أيضًا)) والإله العبرى قبل أنْ يقتل المصريين ، وحتى لا يُخطئ بين بيوتهم وبيوت بنى إسرائيل ، فإنه يطلب من الأخيرين ما يلى ((ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها ، فأرى الدم وأعبر عنكم ، فلايكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا فتعيدونه عيدًا للرب ، فى أجيالكم تُعيدونه فريضة أبدية)) (خروج ١١ :٤- ٧ ، خروج ١٢ : ١٣، ١٤) .

وقبل تنفيذ هذه المجزرة ، فإنّ الإله العبرى يُحرّض بنى إسرائيل صراحة على

سرقة المصريين فقال ((فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى مصر وتقولون له إله العبرانيين إتقانا . فالآن نمضى سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا ، ولكنى أعلم أنّ ملك مصر لا يدعوكم تمضون ولا بيد قوية . فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها . وبعد ذلك يُطلقكم . وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين . فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فتسلبون المصريين)) (خروج ٣ : من ١٨ – ٢٢) .

وصل العداء إذن لدرجة الجاسوسية والتحريض على السرقة وتحويل المياه والأرض إلى دم ، بل والإبادة ، وهو ما عبّرعنه العهد القديم إذْ نص على ((فخلّص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتًا على شاطىء البحر)) (خروج ١٤ : ٣٠ ،٣١) وكذلك ((... فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضًا إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) (خروج ١٤ : ١١ – ١٤) وفى القرآن العظيم ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة] وإذا كان علم المصريات يؤكد أنّ بنى إسرائيل عملوا مع أعداء مصر (مع الحيثيين ومع الهكسوس إلخ) ضد جدودنا المصريين القدماء ، ورفضوا الاندماج فى المجتمع المصرى الذى أمّن حياتهم ، ورفضوا العمل فى البناء والتشييد ، واعتبروا أنّ (العمل اليدوى) إهانة لا تليق بهم ، إزاء كل هذه الحقائق التى تمتلىء بها كتب علم المصريات ، ماذا كان يُنتظر من أى حاكم وطنى غير طردهم من مصر، وليس التمسك بهم كما يدعى العبريون ؟

***

وإذا كانت الميديا الصهيونية تتعمد تشويه صورة جدودنا الذين شيّدوا أول حضارة إنسانية ، فإنّ التليفزيون (المصرى) فعل نفس الشىء ، والأمثلة كثيرة ، منها مسلسل (لا إله إلاّ الله) ورسالته الهجوم على مصر، وهو ما جعل الشاعر الكبير أحمد

عبدالمعطى حجازى أنْ يكتب مقاله الشهيرفى صحيفة الأهرام (الهكسوس يغزون التليفزيون المصرى) وكذلك مسلسل آخر للأطفال كتبتْ عنه المواطنة (منال غالب) أنه (من أجمل ما رأيتُ فى برامج التليفزيون الرمضانية ، برنامج قصص الأنبياء . وقد أهلتُ نفسى وأطفالى للتفرغ لمشاهدة العرض . وكنا فى كل حلقة وكأننا نجوب معها العصر الذى تروى عنه بكل مؤثراته ، ونحطم الأصنام ونحارب فرعون وجنوده ، ولهذا استمتعنا به كبارًا وصغارًا . تحية للتليفزيون على هذا البرنامج الممتع)) (بريد الأهرام ١٠/ ١/ ٩٩) .

إننى أطرح هذا السؤال وأترك إجابته لضمير القارئ : ما الفرق بين ما يُقدّمه التليفزيون (المصرى) وما تُقدّمه الميديا الصهيونية ؟ لقد رأينا بريد الأهرام يحتفى برسالة مواطنة (مصرية) لأنها شاهدتْ الحرب ضد ((فرعون وجنوده)) وتحرص على أنْ يجلس أطفالها معها لمشاهدة قتل جدودهم واحتقار رموزهم القومية . وإذا كان هذا هو الإعلام الرسمى ، فهل يمكن الحديث عن أى انتماء لأى مصرى لوطنه مصر ؟

إنّ احتقار الذات القومية ، المتمثل فى سب الفرعون ، خط مشترك لدى العديد من الكتاب (المصريين) الذين كتبوا عن ((فرعون الطاغى المستبد)) ولأنّ المسألة قومية وليست شخصية ، سأكتفى بذكر مصدر النشر ونقط بدل اسم الكاتب (... أهرام ٧/ ٩/ ٩٠ ، ... الأهالى ٢٠/ ٥/ ٩٢ ، ... الأهالى ٢٠/ ٧/ ٩٤ ، ... أهرام ١٢/ ٢/ ٩٤ ، ... أهرام ٣٠/ ١٢/ ٩٨ ، ... أهرام ١/ ٣/ ٩٩ ، ... أخبار اليوم ٢٠/ ٣/ ٩٩ ومع ملاحظة أنّ هذه الأمثلة ليست على سبيل الحصر، وملاحظة أننى تعمّدتُ استبعاد الاستشهاد بالكتاب الذين يؤمنون بأنّ مرجعيتهم الوحيدة هى المرجعية الدينية ، بمراعاة أنّ موقف هؤلاء الكتاب لايحتاج إلى دليل ، فهم بسبب مرجعيتهم الدينية مع الفكر العبرى المعادى لمصر، ولذلك تعمّدتُ التركيزعلى الكتاب الذين يُفترض أنهم يُفرّقون بين المرجعية الدينية والمرجعية

المؤسسة على العلم والتاريخ ، ولكن تبين أنّ أولئك لايختلفون عن هؤلاء .

تعمّدتُ استخدام تعبير(الثقافة السائدة) ولم أستخدم (كل) الثقافة فى مصر، لأنّ الأمانة العلمية تقضى بالاعتراف بوجود بعض الكتاب المصريين الذين يحترمون لغة العلم ، التى سلّحتهم بإطار معرفى ، جعلتهم يُقدّرون خصوصية مصروحضارتها ومن أمثلة ذلك أننى نظمتُ سلسلة ندوات فى أتيليه القاهرة عام ١٩٨٣ تحت عنوان رئيسى (صحيحة لغويًا وليس رئيس) هو (أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر) تحدث فيها كل من : أ. فتحى رضوان ، أ. السيد ياسين ، د. نعمات أحمد فؤاد ، د. سيد عويس ، د. فؤاد مرسى ، د. عبدالحميد يونس، د. حسين فوزى النجار. كان الملفت للنظر- وأنا أراجع هذه الندوات لطبعها فى كتاب- أنّ كل هؤلاء الكتاب أجمعوا على أنّ الحضارة المصرية هى مهد الحضارات الإنسانية ، وأنّ فكرة (الضمير) نشأت فى مصر، وأنّ هذه الحضارة كانت فيها الأسرة والمرأة والطفولة من المقدسات ، هذا بخلاف أنّ المصريين القدماء هم أول من أبدعوا علوم الهندسة والطب والفلك إلخ بالاضافة إلى فنون النحت والرسم وكتابة القصة ووصايا الحكماء إلى أبنائهم إلخ كما أجمعوا على أنّ الحضارة المصرية لم تكن حضارة سخرة أو عبودية (كما يدعى العبريون) وذكرأكثرمن محاضرأنّ العبيد لايُبدعون .

وإذا كان فيلم (أمير مصر) تم إنتاجه عام ١٩٩٨ فإنّ د. حسين فوزى النجار حذر فى عام ١٩٨٣ من ((تزييف المعرفة التى يقوم بها الإسرائيليون ، فإنهم يقومون بإنتاج فيلم سينمائى يُثبتون فيه أنهم بناة الأهرام)) وهو نفس الشىء الذى حذرت منه د. نعمات أحمد فؤاد (انظر نص الندوات فى كتاب أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر- إعداد وتقديم طلعت رضوان - هيئة الكتاب المصرية عام١٩٩٩) .

ومن الكتاب الذين دافعوا عن الحضارة المصرية د. ميلاد حنا الذى كتب أننا

نحن المصريين لم نتعمق فى دراسة تاريخنا القديم بالقدرالكافى . ونوّه إلى الحقيقة التى يتغافل عنها كثيرون وهى أنّ مصر ليس بها كلية أو قسم مصريات . وما كتبه د. ميلاد حنا فى هذا الشأن يُساهم فى تعميق إحساس المصرى بمصريته ، ولكنه هدم ما كتبه- فى ذات المقال- إذْ ردّد مقولة أنّ المصرى الكبير(يويا) والد الملكة (تى) هو يوسف النبى العبرى (أهرام ٢/ ٩/ ٩٧) إنّ ترسيخ الإدعاء بأنّ بعض الأنبياء العبريين مصريون ، يُشجع الميديا الصهيونية التى يُسعدها أنْ يكتب كاتب مصرى مؤيدًا توجهاتها التى تسعى إلى تأصيل مقولة أن بنى إسرائيل هم بناة الحضارة المصرية ، وإنْ كان د. ميلاد حنا لم يقصد بالطبع الوصول إلى هذا الهدف ، فإنّ العبرة فى أثر هذا الكلام على القارئ ، لهذا كان من المهم الرد على هذا الادعاء ، فكتبت د. نعمات أحمد فؤاد مقالا مهما فنّدتْ فيه هذا الزعم ، وكدأبها دائمًا ذكرت المراجع العلمية التى تؤكد نفى هذه المزاعم ، وذكرت أنّ ((عقدة اليهود- كما يقول عالمهم فرويد- سبق مصرفى الحضارة)) (أهرام ١٥/ ١٠/ ٩٧) .

وعندما تجدّدتْ ادعاءات الميديا الصهيونية فى الترويج لأكذوبة أنّ اليهود هم بناة الأهرام ، كتبت د. نعمات أحمد فؤاد سلسلة مقالات فنّدتْ فيها هذه الأكاذيب بمرجعية من المؤرخين المعاصرين للأحداث وعلماء علم المصريات (أهرام ٢ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٣ سبتمبر٩٨) .

وفى الوقت الذى هلّلتْ فيه الثقافة السائدة لفيلم المهاجر، فإنّ بعض النقاد الذين يحترمون لغة العلم ، كتبوا نقدًا للفيلم يتسم بالموضوعية ، منهم الناقد السينمائى أ. أحمد يوسف الذى كتب دراسة مهمة اختلف فيها مع لغة التمجيد السائدة التى لم يهتز ضميرها ، ولم يتوقف عقلها أمام معادة الفيلم للحضارة المصرية، ولا للتزوير فى التاريخ ، ومن هنا كانت أهمية هذه الدراسة المنشورة فى مجلة اليسار فى العددين نوفمبر وديسمبر٩٤ .

وخفّف من حزنى أنى قرأتُ للطالب الجامعى (حسام فتح الله) الذى كتب بعد

أنْ شاهد فيلم (أميرمصر) رسالة طويلة ، تنم عن وعى قومى يفتقده كثيرون من (كبار) الكتاب . ومن بين ما جاء فى رسالته ((اذا ربطنا بين فكرة الفيلم وبين الإدعاءات المتكررة بأنّ اليهود هم الذين بنوا الأهرام ، بل وبنوا حضارة مصر، لوجدنا أنّ هناك يدًا خفية تغزل بمهارة شديدة خيوط مؤامرة لتهويد حضارة مصر، وإرجاع مجدنا وحضارتنا إلى اليهود . ومن خبث من هم وراء هذا الفيلم ، أنه فيلم كرتون . فإذا كنتُ أنا الشاب ٢١ عامًا قد انبهرتُ به ، فماذا يفعل هذا الفيلم بالأطفال فى أنحاء العالم ؟ بالقطع سينبهر الأطفال ويُصدّقون ما ورد بالفيلم على أنه حقيقة ، ونجد أنفسنا بعد جيل أو إثنين قد أخذنا هذه الإدعاءات على أنها مسلمات لاتحتاج لجدال)) (انظر نص الرسالة – بريد الأهرام ٢٥/ ١/ ٩٩) .

ورغم أنّ المفكر الكبير المرحوم أ. خليل عبدالكريم متخصص فى التراث العربى والإسلامى ، إلاّ أنه وهو يكتب يكون بصره وتكون بصيرته دائمًا على مصر، واكتشفتُ أنه فى (كل) كتبه يعقد مقارنة بين الحضارة المصرية وبين العرب الذين غزوا مصر، وعلى سبيل المثال فإنه فى كتابه (العرب والمرأة) وبعد أنْ أثبت الوضع المزرى للمرأة العربية ، عقد مقارنة بينها وبين المرأة فى الحضارة المصرية ، ولأنه عالم يحترم لغة العلم ، فقد اعتمد على مجموعة من المراجع المتخصصة التى تناولت وضع المرأة فى مصر القديمة . أما عن السبب الذى فرّق وميّز بين الوضع الإنسانى للمرأة المصرية ، والوضع المتدنى للمرأة العربية ، فإنه ((بكل بساطة الفرق بين الحضارة ، بل أعرق حضارة عرفها التاريخ وبين البداوة)) (انظر كتاب العرب والمرأة – دار الانتشار العربى ، دارسينا للنشر- عام ٩٨ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠) ومن المفكرين المصريين الذين دافعوا عن الحضارة المصرية ، الراحل الجليل بيومى قنديل ، وخاصة فى كتابه (حاضر الثقافة فى مصر- أربع طبعات على نفقته الخاصة) وكذلك كتابه (دفاع عن تراثنا القبطى- الصادر عن دار ميرت للنشر- عام ٢٠٠٨) وكذلك مؤلفات د. مرفت عبدالناصر التى دافعتْ فى كل كتبها عن الحضارة

المصرية ، من واقع علم المصريات ، وليس بدافع حسها القومى فقط ، ومن بين كتبها على سبيل المثال (لماذا فقد حورس عينه – قراءة جديدة فى الفكر المصرى) الصادر عن دار شرقيات عام ٢٠٠٥ ، وكتاب (معنى الوطن) الصادر عن نهضة مصر- عام ٢٠٠٩ ، وكتاب(نقش البردى) الصادر عن نهضة مصر – عام ٢٠٠٧ ، موسوعة (مصر فى عيون العالم) للشباب فى عشرة أجزاء الصادرة عن دار الكتاب المصرى ، ودار الكتاب اللبنانى ثم أعيد نشرها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٧ ، وموسوعة (الفن المصرى القديم) للناشئين فى عشرة أجزاء الصادرة عن دار الكتاب المصرى ، ودار الكتاب اللبنانى ثم أعيد نشرها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥ ، وموسوعة (تاريخ الأفكار) للشباب الصادرة عن نهضة مصر- ثلاثة أجزاء الصادرة عن نهضة مصر- عام ٢٠٠٧ مع مراعاة أنّ ماذكرته على سبيل المثال بالطبع .

***

إذا كان بنو إسرائيل نجحوا فى احتلال فلسطين ، مسلحين بمرجعيتهم الدينية ، فإنهم يستهدفون الاستيلاء على مصر، مُدججين بذات المرجعية ، فهم إلى الآن لازالوا يفرضون على أولادهم أنْ يُردّدوا فى المدارس وفى صلواتهم فى المعابد ، ما جاء فى العهد القديم ((فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام (إبراهيم فيما بعد) ميثاقًا قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)) (تكوين ١٥ : ١٨) وإله العبريين يُوزع أراضى الغيرعلى بنى إسرائيل وبالجملة ، ويجد القارئ فى سفر التكوين وحده آيات عديدة ، منها على سبيل المثال ((وكان فى الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام إبراهيم . فذهب إسحق إلى أبي مالك ملك الفلسطينيين إلى جرار. وظهر له الرب وقال لا تنزل إلى مصر. أسكن فى الأرض التى أقول لك . تغرّب فى الأرض . فأكون معك وأباركك . لإنى لك ولنسلك أعطى هذه البلاد)) (تكوين ٢٦ : ١ – ٥) وأكثر من ذلك فإنّ أى أرض

تطأها أقدامهم هى ملك لهم طالما أنّ مرجعيتهم الدينية التى يتمسكون بها تقول لهم صراحة ((وكان بعد موت موسى عبد الرب أنّ الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلّمتُ موسى . من البرية ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات. جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير.. إلخ)) (يشوع ١ : ١ - ٥) .

إنّ بنى إسرائيل المعاصرين لم يكتفوا بالمرجعية الدينية للاستيلاء على أراضى الغير، وإنما يزايدون على تلك المرجعية بإدعاء أنهم بناة الحضارة المصرية ، والترويج للكثيرمن الأكاذيب مثل أنّ (يويا) هويوسف وأنّ أخناتون هو موسى . وهى إدعاءات يُكذبها التاريخ والعلم . واذا كانت هذه هى إرادة الميديا الصهيونية ، فأين (إرادتنا) نحن المصريين ؟

إنّ الأمثلة المذكورة بعاليه ضئيلة قياسًا على الكم الهائل من الأمثلة التى تحت يدى ، وكانت النتيجة مرعبة ، وهى أنّ الثقافة السائدة فى مصر، تُقاوم الهجوم على الحضارة المصرية ، بل وعلى القومية المصرية بالعبرى ، أى على أرضية التراث العبرى المعادى لمصر، شعبًا وحضارة . ويعف ضميرى عن إتهام أى كاتب بالعداء لمصر، ولكننى فى نفس الوقت أقدّم السيادة للعقل الحر، وأنّ العبرة بما هو مدوّن ووصل إلى يد القارىء ، وليست العبرة بالنيات . وتكمن المأساة فى أنّ كثيرين من الشرفاء يكتبون بلغة العاطفة مرة أوبحسابات الأيديولوجيا مرات ، ضد لغة العلم، ويتخلون عن عقولهم ، عندما يخلطون بين ما هو تاريخى وما هو دينى ، وأنّ الكاتب الذى يسمح ضميره أنْ يسب ويهجو(الفرعون) ويعتبره النموذج الأكبر لكل الطغاة لايحترم لغة العلم ، ناهيك عن الدرجة التى وصل إليها من الدونية القومية .

إنّ ترديد إدعاءات بنى إسرائيل يستدعى استنفار كل الكتاب المصريين ،

بالإضافة إلى جهازىْ التعليم والإعلام ، للتصدى والرد على الميديا الصهيونية ، وهذا التصدى لن يكون ذات جدوى ، طالما أنّ الثقافة السائدة تقاوم إدعاءات الصهيونية الدينية بالعبرى (أى أنها مؤمنة بالتراث العبرى المعادى لمصر) بل إنّ هذه المقاومة بالعبرى تُضاف إلى رصيد العبريين أعداء مصر. وأرى أنّ المقاومة الجادة يجب أنْ تمر من خلال ترسيخ احترام علم المصريات ، وأنْ يكون مادة أساسية فى كل مراحل التعليم ، من الابتدائى إلى الجامعى ، كما تفعل دول الشعوب المتحضرة ، ولن تكون إلاّ بتعليم اللغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث (الهيروغليفية والديموتيقية والقبطية) وأعتقد أنه لو تمت الاستجابة لهذا المطلب القومى ، نكون قد ضمنّا- خلال عشرين أو ثلاثين عامًا- تخريج أجيال تعى تاريخها وتراثها ، وبالتالى تكون هذه الأجيال مسلحة بإطار معرفى- على أسس علمية- ويتأكد لديهم اليقين العلمى أنّ الحضارة المصرية التى أبدعها جدودهم ، كانت مهد الحضارات الإنسانية ، وأنّ الفراعين (= الملوك) كانوا وطنيين ، وكانوا يدافعون عن مصر فى الصفوف الأولى ، مثلهم مثل أى جندى (فى المتحف المصرى- قسم المومياوات- جثة الفرعون العظيم سقنن – رع وعلى وجهه وفى صدره آثارالجروح التى نتجت عن مشاركته الجنود فى محاربة الهكسوس) وسوف يترتب على هذا الوعى احترام وتبجيل جدودهم كما يفعل الإيرانيون وغيرهم من الشعوب ، وبالتالى لن يسمح ضمير أى مصرى بأنْ يسب جدوده ، كما تفعل الثقافة السائدة حاليًا .

إنّ الإطار المعرفى المدعم بأسس علمية ، هو بداية الطريق لاحترام ذواتنا القومية .

obeikan.com

الفصل الثاني

مصر
والتراث العبري

عرض صحفى بجريدة الأهرام (١٣/ ١١/ ٩٧ ص ٣) مُلخصًا لمحاضرة ألقاها د. مراد محمد الدش أستاذ مساعد الهندسة الإنشائية بجامعة عين شمس. والعرض يتسم بالإعجاب والانبهار، لأنّ المحاضر قدّم تفسيرًا مختلفًا لأحداث التاريخ المصرى القديم ((يحمل مفاجأة علمية ضخمة تتعلق بمكان عبور موسى. وكان تحوتمس الثالث هو فرعون مصر آنذاك الذى بغى وتجبر.. إلخ)) وهذه المفاجأة (العلمية) الضخمة تُثير الملاحظات التالية :

كل الشعوب المتحضرة (اليونانيون، الصينيون، اليابانيون إلخ) يحترمون تراثهم ويُقدّسون جدودهم الذين حكموا بلادهم فى العصور القديمة، وهؤلاء الحكام ينطبق عليهم الحكم القيمى غير العلمى (وثنيين) بمراعاة أنهم عاشوا قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين. وأنّ الأحفاد فى قرننا الحالى يُطلقون أسماء هؤلاء الجدود على أبنائهم. فلماذا ينفرد (المثقف) المصرى بهذه الدونية المتمثلة فى سب جدوده وتشويه تاريخهم الوطنى فى الدفاع عن مصر ضد الغزاة ؟

إنّ هذا الاحتقار ضد رموزنا القومية يشترك فيه أغلب الكتاب (المصريين) وبدأ بعد كارثة أبيب / يوليو ١٩٥٢ عندما امتلك عبدالناصر جرأة شطب اسم مصر، وأصبحتْ هوية المصرى الحروف الثلاثة الشهيرة (ج . ع . م) وهو الفعل الذى لم يرتكبه الغزاة ، بدءًا بالهكسوس وحتى الإنجليز. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من النادر أنْ تجد مثقفًا فى قامة لطفى السيد أو طه حسين أو سلامة موسى أو درية شفيق أو سعاد الرملى أو منيرة ثابت إلخ الذين كانوا يدافعون عن مصر مهد الحضارة الإنسانية .

إنّ تحتمس الثالث الذى اتهمه د. مراد الدش بالبغى والتجبر، هو واحد من الفراعنة (= الملوك) العظام وعلى سبيل المثال كتب عنه (وولترإمرى) أنّ ((شهرة انتصارات تحتمس الثالث فى سوريا كانت كافية لردع أية فكرة ثورية فى كوش)) وأثناء حكمه ((وصلت إدارة النوبة إلى أعلى المستويات . وأنّ العمل فى مناجم الذهب والطرق التجارية قد تمتعا بالأمان فلم تقلقها إغارات البدو)) (انظركتاب : مصر وبلاد النوبة – ترجمة تحفة حندوسة – عام ١٩٧٠ من ص ١٩٢ – ١٩٥) وكتب (جان يويوت) أنّ تحوتمس الثالث ((استمر يحكم أكثرمن ثلاثين عامًا ، كانت كلها سنوات مجد وازدهارعظيمين)) وأنه تمكن من ((جعل فينيقيا فى متناول الجيوش المصرية عندما أقام فى بيرو نفر(ضاحية منف) ترسانة بحرية بنى فيها أسطولا عظيمًا لنقل الجيوش)) وروى المؤلف تفاصيل انتصار تحتمس الثالث على ملك قادش فى معركة مجدو (تلك المدينة الحصينة) بفضل التكتيك العسكرى الباهر. وبعد معركة مجدو ((قام مندوبو دولة أشور بزيارته ، كما أرسل ملوك خاتى وبابل الهدايا للفرعون بعد عبوره الفرات ، ثم قدّم ملوك عازى وألالاخ فروض الطاعة للفرعون ، وهكذا تمكن فى أواخر حكمه أنْ يُعلن بحق أنّ حدود إمبراطوريته تمتد من كاروى جنوبًا إلى نهارين شمالا ، كما كان يتوجّه أحيانًا إلى النقب ليتعقب البدو ويقمع التمردات التى كانت تتوالى تباعًا)) (أنظركتاب : مصر الفرعونية- ترجمة سعد زهران- الناشر مؤسسة سجل العرب- سلسلة الألف

كتاب الأولى عام ١٩٦٦ ص ١٠٨ ، من ١١٥ - ١١٧) .

وجاء فى (معجم الحضارة المصرية) أنّ تحتمس الثالث أثبت أنه فاتح عظيم ، فقد هزم عصبة من الأمراء السوريين فى مجدو ، وقضى على مقاومة الممالك العظمى والصغرى فى فلسطين وسوريا ، فى حملات سنوية ، وأوقف زحف الميتانى ، تلك الدولة العراقية الشمالية التى زحفت حتى نهرالفرات ، وثبّت أقدام المصريين فيما بين الشلال الأول والرابع للنيل . وهذه الانتصارات منقوشة على جدران معبد آمون بالكرنك ، تُثنى على فتوحاته وأعماله الدينية الخيّرة. وأنّ مقصورته بالكرنك وبعض الآثار الطيبة الأخرى ومقابر موظفيه الجميلة ، تُفصح عن عظمة مؤسس أعظم حقبة فى تاريخ مصر)) (تأليف مجموعة من علماء المصريات- ترجمة أمين سلامة- مكتبة الأسرة- عام ٩٦ ص ٩٦ ، ٧٩) .

أما د. محمد بيومى مهران فذكرأنّ تحتمس الثالث ((أعظم الفراعين المحاربين على الإطلاق فيما أعتقد)) (تاريخ الشرق الأدنى القديم- مصدرسابق- ج ٣ ص ١٥٧ ، ٢٢٧) .

وعن هذا الفرعون العظيم كتبت عالمة المصريات (مرجريت مرى) أنه فى عهده ((كانت القضايا المدنية متعلقة فى الغالب بالأراضى والوراثة ، وتتم محاكماتها أمام الوزير. ولما كانت كلها فى الغالب لفئة من الناس لها مكانتها ، كان لزامًا على الوزير أنْ يكون قاضيًا منصفًا . وقد أشار تحتمس الثالث إلى أهمية ذلك عندما عيّن (رخ- م- رع) لهذا المنصب فقال « إنّ المحاباة رجسٌ ضد الإله » ونبّه على الوزير الجديد بأنْ يُعامل الصديق والغريب والغنى والفقير على قدم المساواة « لأنّ الرهبة الحقيقية للأمير هى فى عدالته »)) وكتبتْ أيضًا أنّ المصريين أحبوا هذا الفاتح العظيم حبًا جمًا)) (أنظركتاب : مصر ومجدها الغابر - ترجمة محرم كمال- هيئة الكتاب المصرية- سلسلة الألف كتاب الثانى- رقم ٢٩٠- عام ٩٨- ص ٩١ ، ٩٢ ، ٢٢١) .

هذا هو تحتمس الثالث فى علم المصريات ، ولكنه من منظور أستاذ الهندسة

الإنشائية فهو الفرعون الذى بغى وتجبّر لأنه اضطهد بنى إسرائيل وبالتالى ((هبط الوحى على موسى وتلقى رسالة ربه ليؤدب فرعون مصر.. إلخ)) وهنا تجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية :

لم يستقر علماء علم المصريات على اسم الفرعون الذى طرد بنى إسرائيل من مصر . كما أنّ د. الدش اعترف بأنّ بنى إسرائيل فى عهد إمنمحات الثالث حاولوا ((السيطرة على الاقتصاد المصرى وجلبوا الهكسوس وساعدوهم فى السيطرة على البلاد. وتحوّل الهكسوس إلى مرتزقة يُسيطرون على المنطقة الشرقية لمصر، وحكموا فيها بدعم من بنى إسرائيل ، وعانى الشعب المصرى أشد المعاناة على يد بنى إسرائيل والهكسوس حتى تولى أحمس الأول مقاليد الحكم وعكف على وضع الخطط لطرد الهكسوس وكسر شوكتهم ومساندهم من بنى إسرائيل ، حتى استطاع طرد الهكسوس الغزاة وكسر شوكة بنى إسرائيل . وجاء أمنحوتب الأول الذى تعقبهم وطاردهم فى كل مكان)) هذا هو نص كلام د. الدش الذى إتهم تحوتمس الثالث بالبغى والتجبر ، أضعه أمام القارئ ليحكم على هذه العقلية التى تتشبث وتُردد خرافيف بنى إسرائيل .

***

ولاينقطع انشغال المتعلمين (المصريين) فى البحث عن (فرعون) الخروج . وقبل الإدعاء بأنه تحتمس الثالث ، كان السائد أنه رمسيس الثانى ، ولكن الرحلة التى قطعها هذا الملك العظيم من القاهرة إلى باريس أخرستهم . والحكاية أنّ الرئيس الفرنسى ديستان طلب من الرئيس السادات أنْ يسمح لبعض (العلماء) أنْ يأخذوا مومياء الفرعون الشهير ويُقدّمونها فى عرض مسرحى فى باريس ، وبعد ذلك كانت الحجة أو الحيلة هى العلاج . كان وراء هذا العلاج المزعوم التأكد من أنّ رمسيس الثانى هو فرعون الخروج ، وذلك من خلال الفحص المعملى ، لمعرفة ما اذا كان قد مات غريقًا أم لا . والنتيجة بالطبع هى تشويه المومياء .

وذكر أ. سعيد أبوالعنين أنّ جريمة خروج المومياء من القاهرة ، كانت بإلحاح

من طبيب مغربى يهودى ، كان يُعالج محمود أبو وافيه ، عديل الرئيس السادات . وللأمانة فإنّ د. جمال مختار رئيس هيئة الآثار فى ذاك الوقت (ديسمبر ١٩٧٥) رفض عرض الرئيس الفرنسى وقال له ((هذا شىء صعب . فهذا الملك هو من ملوك مصر العظام . ومن غير المقبول أنْ تسافر الجثة لتُعرض فى فرنسا . وهل توافقون سيادتكم على أنْ نأخذ منكم التابوت أو حتى غطاء تابوت نابليون بونابرت ، لنعرضه هنا فى مصر؟ وذكرد. جمال مختار أنه اتصل بيوسف السباعى (وزير الثقافة وقتها) ونقل له مخاوفه عن ردود الفعل التى يمكن أنْ يُحدثها سفر المومياء إلى باريس . ولكن يوسف السباعى لم يفعل شيئًا . ثم لجأ د. جمال مختار إلى رئيس الوزراء أيامها (ممدوح سالم) لإقناعه برفض فكرة خروج المومياء من مصر، ولكن ممدوح سالم لم يهتم بالأمر. وللأمانة أيضًا فإنّ أستاذة فرنسية فى كلية العلوم عارضتْ الرئيس ديستان . وقالت إنّ هذا عبث . وأنّ هذه المومياء التى يريدون إخراجها من مصر لعرضها فى فرنسا هى لواحد من أعظم ملوك مصر. وأنها سوف تقود مظاهرة تُندد بهذا العبث إذا لم يتراجع الرئيس ديستان . وكان لإثارة القضية على هذا النحو أثره الكبير، فقد تراجع الرئيس ديستان وبعث برسالة إلى الرئيس السادات أعلن فيها أنه تراجع عن فكرة عرض المومياء فى باريس . ونشرت الصحف الفرنسية رسالة ديستان إلى السادات .

ولكن بعد تدخل أبو وافيه تغير الموقف ووافق الرئيس السادات على سفر المومياء . وكان أكثر المُصرين على خروج المومياء من مصر هو الطبيب الفرنسى (بوكاى) الذى كانت له علاقات واسعة بكثير من الشخصيات المرموقة فى العالم (العربى والإسلامى) وكان يعرف الكثيرين من الشخصيات المسئولة فى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فى مصر. وتبعًا لذلك صدرتْ توصيات من كبار المسؤولين ومن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالاحتفاء به ومساعدته وتلبية طلباته وتسهيل مهمته (العلمية) .

وإذا كانت الثقافة السائدة فى مصر لم تهتم بخروج مومياء رمسيس الثانى من مصر، فإنّ صحيفة (الهيرالد تريبيون) كتبت أنّ الضجة التى أثيرت فى الإعلام الفرنسى حول مرض الفرعون وضرورة علاج المومياء إلخ ، لم تكن سوى حيلة لإخراج الملك رمسيس من مصر، لوضعه تحت الفحص والبحث والدراسة ، لمعرفة أسرار هذه الشخصية . وتعمّد موشى ديّان أنْ يزور مومياء الفرعون العظيم فى المستشفى ، وأخذ ينقرعلى أصابع قدميه بعصا المارشالية ، وقال له بكل أحقاد اليهود ((أخرجتنا من مصر أحياءً . وأخرجناك منها ميتًا)) ووصلت ذروة المأساة فى التقرير المصور فى التليفزيون الفرنسى ، ومدته ٢٠ دقيقة. فى هذا التقرير المصور ظهرتْ المومياء عارية تمامًا بعد أنْ نزعوا اللفائف الكتانية التى كانت تحميها . وكان المذيع الفرنسى شديد التعصب لخرافات بنى إسرائيل ، فقال للمشاهدين ((إليكم فرعون مصر الشهير. إليكم ملك ملوك الفراعنة . إليكم الملك رمسيس الثانى . إليكم الفرعون الذى طارد اليهود قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام . الفرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل وسخّرهم فى أعمال البناء والتشييد وسقاهم سوء العذاب)) هذا التقرير المصور فى التليفزيون الفرنسى ، هزّ ضمير الشعب الفرنسى وفى المقدمة المثقفين الفرنسيين ، الذين توجه عدد كبير منهم إلى السفارة المصرية فى باريس وسجلوا رفضهم واستنكارهم لهذا العمل المشين الذى أساء إلى شخصية تاريخية عظيمة .

كتبتْ عالمة المصريات كريستين نوبلكورفى كتابها عن رمسيس الثانى والذى طبع منه مليون نسخة أنّ ((التوراة ظلمت رمسيس وكل ما قالته عنه غير صحيح . وظلمت مصر والمصريين)) وأنّ التوراة كتاب مليىء بالقصص والحكايات التى جُمعتْ من هنا وهناك . وأنها لايمكن أنْ تُعد وثيقة تاريخية وبصفة خاصة بالنسبة لمصر)) وكتبتْ ((إننى أرفض الافتراء على التاريخ وعلى الملك رمسيس . وأنّ الإدعاءات اليهودية على الملك رمسيس هى محض افتراء وليس لها أى أساس من

الصحة . إنّ سِفر الخروج يُشير إلى وقائع لا يوجد لها أى أثر فى كل ما وجدناه من كتابات ونقوش مصرية ، على الرغم من أنّ هذه الكتابات والنقوش كانت ترصد تفصيلات صغيرة جدًا لا تقارن بخروج مئات الآلاف من البلاد . هناك فى سجلات الحدود تسجيل لكل حركات المرور عبر الحدود ، حتى إنّ راعيًا ومعه ٤٠ رأس غنم يعبر الحدود ، كان عبوره يُرصد ويُسجل . واذا كنتُ فى كتابى عن رمسيس الثانى قد تحدثتُ عن خروج اليهود من مصر، فقد فعلتُ ذلك للأمانة العلمية . إنّ واجب عالم المصريات أنْ يقول رأيه بأمانة . إنّ ما تقوله التوراة من أن المصريين كانوا يُسخرون اليهود لضرب الطوب ، يجعل أى دارس لتاريخ مصر القديمة يبتسم . إنّ ضرب الطوب فى مصر قديم قدم الزمن . وأنا أرفض تمامًا الافتراء على التاريخ لإدانة فترة أو زمن بعينه . ولم يكن الفراعنة قساة ، لأنّ الساميين الذين كانوا يفدون إلى مصر للعمل بها ، كانوا يعيشون حياة هانئة . هذه هى حقائق التاريخ الثابتة . إنّ الشعب المصرى يتمتع بحكمة هائلة لا أجدها فى الشعوب الأخرى . كما يتمتع بنظرة فلسفية للأمور. وعندما أرى أفلامًا مثل فيلم (الوصايا العشر) تُصور المصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين ، أشعر بالغضب . فهذا كذب وافتراء)) هذا هو رأى عالمة مصريات فرنسية عن جدودنا المصريين القدماء . و ذكرتْ أنه عند نقل تابوت الملك رمسيس إلى مركب بالنيل تتجه به إلى القاهرة ((وقف المصريون على الشاطىء عند الأقصر وكأنهم يُشاركون فى جنازة عصرية . فالنساء يولولن من الحزن وينشرن الغبار على شعورهن . والرجال يُطلقون النار من البنادق)) .

بعد أنْ أثبتتْ الفحوص الطبية والمعملية أنّ مومياء رمسيس الثانى ليس بها أية آثار تدل على الغرق ، وبالتالى ليس هو فرعون الخروج ، فإذا بالطبيب الفرنسى (بوكاى) يركب رأسه العبرى فى اتجاه مومياء الفرعون العظيم مرنبتاح ، وأنه هو الغريق وبالتالى فهو فرعون الخروج ، ولكن د. جمال مختار رفض هذا الرأى وقال إنّ

(بوكاى) ليس موضع ثقة وليس مؤهلا علميًّا .

من هو مرنبتاح ؟ لقد اضطر هذا الملك فى العام الخامس من حكمه إلى إرسال حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية ، بعد علمه أنّ رئيس قبيلة الليبو (ليبيا) غزا حدود مصر الغربية ومعه زوجاته وعددهن ١٢ زوجة ، الأمر الذى فسره مرنبتاح أنّ هذا الغزو يعنى الاستيطان فى وادى النيل . فأعدّ جيشًا قويًا من المشاة والمركبات الحربية . واستطاع فى معركة دامت ٦ ساعات أنْ ينتصر على (اللوبيين) وأنْ يأسر ٩ آلاف منهم . وذكرت النقوش المصرية التى ترجع إلى عهده تفاصيل هذه الحرب على أحد جدران معبد الكرنك . وفى أعقاب هذا النصر كُتبتْ (أنشودة الانتصار) التى ورد فيها عبارة ((وإسرائيل قد انقطعت بذرتها)) ويرى عالم المصريات د. عبدالعزيز صالح أنّ لوحة إسرائيل التى تتضمن أنشودة النصر قد اعتبرت إسرائيل من ((نزلاء فلسطين)) وأنّ مرنبتاح فى هذه اللوحة لم يذكر تتبعه لهم ، وهو ما يؤكد أنّ بنى إسرائيل دخلوا فلسطين قبل عهده ، وأنهم خرجوا من مصر- بالتالى- قبل عهده . واذا كان مرنبتاح حكم مدة ١٠ سنوات ، فمعنى ذلك أنه عاش ٥ سنوات فى الحكم بعد خروج بنى إسرائيل . وأنّ هذا الأمر ((يتناقض مع قول التوراة بأنّ (فرعون) قد غرق فى البحر الأحمر. بل ويتنافر مع قول القرآن العظيم بأنّ (فرعون) غرق وأنّ جثته قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه . قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ . وأكثر من ذلك فإنّ جثة مرنبتاح (فرعون الخروج حسب تفسيرات بعض اليهود) موجودة وقد عُثر عليها فى طيبة الغربية ، أى بالبر الغربى للأقصر، وهم يقولون أنه غرق فى البحر الأحمر ولم تظهر جثته)) .

رغم كل هذه الحقائق لجأ الطبيب (بوكاى) إلى التلفيق ليؤكد أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج وأنه مات غريقًا إلى آخر هذه الخرافات . وكانت الكارثة الأكبر- كما ذكرأ. سعيد أبوالعنين- أنّ بعض المجلات المصرية نشرت هذا التلفيق ووضعت

صورة (بوكاى) على الغلاف (لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الفرعون الذى يُطارده اليهود بينَ التوراة والقرآن – تأليف سعيد أبوالعنين – سلسلة كتاب اليوم – مؤسسة الأخبار – عدد مايو٩٧) .

***

بعد فشل الجرى وراء تحتمس الثالث ووراء رمسيس الثانى ووراء مرنبتاح ، استدار الدماغ العبرى ليبحث عن ملك آخر ليكون هو فرعون الخرج ، فقال إنه أمنحوتب الثالث (صحيفة القاهرة – ٧/ ٨/ ٢٠٠٧) وهكذا يتطوع دماغ باحث (مصرى) ليؤكد خراريف بنى إسرائيل عن ملوكنا العظام . فهذا الملك هو ابن تحتمس الرابع ، وبلغت الإمبراطورية المصرية فى عهده أوج مجدها . وكانت تعتمد على سياسة خارجية ماهرة . وكان من جراء تحاشى الدولة القيام بأعمال حربية ، أنْ سنحتْ للأمراء الوطنيين فى آسيا الفرصة كى ينكثوا بولائهم . فبدأ النفوذ الحبشى يقوى على حساب مصر. وقد اعترف أمنحوتب الثالث بآتون كإله شخصى (قبل أخناتون) ولكنه استمر يُكرم قدامى آلهة وطنه (معجم الحضارة المصرية – مصدرسابق – ص ٥٧)

الملاحظ أنّ الباحثين (المصريين) المنشغلين بمن هو فرعون الخروج ، يعتمدون على المرجعية الدينية ، وهى مرجعية لاتصلح لأى بحث علمى ، يعتمد على البرديات وكتب المؤرخين وعلماء المصريات وعلماء اللغويات ، والأهم إجادة اللغة المصرية القديمة . كما أنهم لايتوقفون أمام ذواتهم ليسألوا أنفسهم : أليس هذا البحث العبثى عن من هو فرعون الخروج ، هو أحد هموم الصهيونية الدينية ؟

وفى هذا السياق دأب كثيرون من الكتاب (المصريين) على ذكرأنّ اسم مصر ورد كثيرًا فى العهد القديم (انظر: صحيفة القاهرة ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٨ كمثال) وأنّ اسم مصرتردد ٥٦٠ مرة . مشكلة هذه الكتابة أنها تهتم بالكم ولاتراعى أهداف

هذا التكرار لاسم مصر، خاصة أنّ التكرار له صبغة أيديولوجية معادية لمصر.

ورد اسم مصر لأول مرة فى الإصحاح ١٢ من سفر التكوين ، الذى ذكر أنه كان جوع فى الأرض ، لذلك انحدر إبرام (إبراهيم فيما بعد) إلى مصر. وقال لسارای (سارة فيما بعد) امرأته قولى إنك أختى ، ليكون لى خير بسببك . ولما ذهبتْ سارای إلى بيت فرعون ، صنع إلى إبرام خيرًا بسببها . وصارله غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وجمال . ثم تكون المفاجأة أنه فى الآية التالية مباشرة نقرأ ((فضرب الربُّ فرعونَ وبيته ضربات عظيمة بسبب سارای امرأة إبرام . فدعا فرعونُ إبرامَ وقال ما هذا الذى صنعت بى . لماذا لم تُخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى ؟ والآن هو ذا امرأتك (مكتوبة هكذا) خذها وإذهب . فأوصى عليه فرعون رجالا فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له)) (الآيات من ١٠ - ٢٠) والسؤال هو: لماذا غضب الرب وأنزل ضرباته العظيمة على الفرعون وبيته ، رغم أنه وثق فى كلام إبرام على أنّ سارای أخته وبالتالى أخذها الفرعون كزوجة وأعطى لأخيها مهرها ؟ سؤال تتجاهله الثقافة السائدة ، ناهيك عن التفكير فيه . كما تتجاهل أنّ عمر سارای عند دخولها مصر كان ٦٥ سنة وفق رواية التوراة ، وتتجاهل أنها قادمة من صحراء جرداء بعد رحلة صفعتها فيها الرياح وغطتْ وجهها بالرمال ، فأىُ جمال هذا الذى ادعته التوراة فى وجه سارای حتى تسبى فرعون مصر، وبالتالى خشى عليها زوجها (إبرام) من أنْ تفتن بجمالها ملك مصر، فأمرها أنْ تدّعى أنها أخته (أخت إبرام) وليست زوجته ؟ وهل مصر خلتْ من البنات الجميلات ليختار ملك مصر من بينهن زوجة له ؟ وهل كان (الفرعون) أعمى البصر والبصيرة ليتزوج من امرأة عجوز قادمة من الصحراء الجرداء وعلى وجهها وجسدها آثار الجوع (وفق رواية التوراة أيضًا) ؟ أسئلة مسكوت عنها ، ناهيك عن التفكير فيها .

فى المرة الثانية نجد أنّ مصر هى جنة الرب (١٣ : ١٠) وبعد ذلك بإصحاحين

فإنّ الرب يهب مصر (وغيرها) إلى بنى إسرائيل . فإذا انتقلنا من سِفر التكوين إلى سِفر الخروج ، نجد تصاعدًا دراماتيكيًا فيقول الرب لموسى اذهب إلى مصر فإنى معك ((فأمد يدى وأضرب مصربكل عجائبى)) وأثناء خروج بنى إسرائيل من مصر ، فإنّ إلههم العبرى يُحرّضهم على سرقة المصريين (٣ : من ٦- ٢٢) هذا غير تحويل كل مظاهر الطبيعة والجماد فى مصر إلى دم (٧ : من ١- ٢١) بعد ذلك ينزل الرب بنفسه ليُدمر مصر (١١ ،١٢) .

لايتوقف الكتاب الذين استبدلوا الدماغ العبرى بالدماغ المصرى (فى اللغة العربية تُلحق الباء بالمتروك ، وإنْ كان المصريون يُفضلون العكس رغم وعيهم بهذه القاعدة اللغوية) لايتوقف الكتاب (المصريون) الذين فضلوا الدماغ العبرى على الدماغ المصرى ، أمام الآيات التى تتحدث عن ندم العبريين بعد خروجهم من مصر، حيث كانوا يأكلون اللحم والسمك إلخ بالمجان ، ورغبتهم فى العودة إلى مصر ليموتوا فيها (خروج ١٤ ، ١٦ وسِفرالعدد من ١١- ١٤) .

بعد هذه الأمثلة (وهى قليلة جدًا) عن اسم مصر فى العهد القديم ، ألا يكون السؤال مشروعًا عن هدف الكتاب (المصريين) من الإشارة إلى أنّ التراث العبرى اهتم بذكر اسم مصر، وهل الهدف هو ترسيخ التشوهات التى لحقت بجدودنا المصريين القدماء ؟ وإذا كانت هذه التشوهات تخدم المشروع العبرى المعادى لمصر، فلماذا تلجأ الثقافة السائدة إلى تثبيتها فى عقول الأجيال الجديدة من أبنائنا المصريين؟ وهل هؤلاء الكتاب قرأوا العهد القديم ؟ أم اكتفوا برصد عدد المرات التى ورد فيها اسم مصر؟ وإذا كانوا قد قرؤوه ، فلماذا لم يتوقفوا أمام التعارض الواضح بين لغة التراث العبرى ، ولغة العلم ؟ خاصة علم المصريات الذى ينفى كل مزاعم بنى إسرائيل عن مصر فى العصور القديمة . وإذا كان التراث العبرى معاديًا لمصر، فالكارثة الحقيقية هى تبنى غالبية المتعلمين المصريين لهذا التراث . وأنا أقول (المتعلمين) ولا أقول (المثقفين) لأنّ التعريف العلمى للمثقف أنه ((طليعة روحية

لشعبه)) طليعة تحرص على الدفاع عن الخصائص القومية لشعبها ، وتحرص على الرد على أى هجوم أو أى عداء لتاريخ شعبها ، خاصة إذا كان هذا الهجوم وهذا العداء ، ذات توجهات أيديولوجية وبعيدة كل البعد عن لغة العلم .

الفصل الثالث

أولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي والنص الديني

للأديب الكبير نجيب محفوظ كتاب بعنوان (أولاد حارتنا) أثار سخط الأصوليين المسلمين والمسيحيين واليهود، إذْ أنّ الرموز عنده يسهل على أى تلميذ التوصل إلى مقابلها التراثى، مثل رمز الإله (= الجبلاوى) ورمز الأنبياء عليهم السلام (جبل = موسى)، (رفاعة = عيسى)، (قاسم = محمد) ووقعتْ المؤسسات الدينية فى حيص بيص، فأولاد حارتنا (الكتاب) لو نُشر على نطاق واسع، فهو تكريس طيب للفكر الدينى عن قصة (خلق العالم) ولكنها تنتهى بموت الجبلاوى (الإله) فإلى أى جانب تنحاز المؤسسات الدينية ؟ انحازت إلى جانب المصادرة، لأنه لايُعقل أنْ توافق على موت الجبلاوى. بالإضافة إلى أنّ الفكر الدينى عن قصة خلق العالم لن يخسر كثيرًا من قرار المصادرة. فإذا كانت الأصول موجودة (التوراة والأناجيل والقرآن العظيم) فما قيمة النسخة المقلدة ؟

وإذا كان الكتاب وقفوا مع حرية التعبير وطالبوا بإلغاء قرار المصادرة (وهذا رأيى أيضًا) فإنّ أحدًا منهم لم يهتم بما فى الكتاب من هجوم على جدودنا المصريين القدماء، فى تكرار لما

جاء فى الكتب (المقدسة) على النحو الذى سأذكره . وأنا أعتمد على طبعة دار الآداب – بيروت- الطبعة الأولى – يناير ١٩٦٧ . ومع ملاحظة أننى سأقصر كلامى على فصل (جبل) لعلاقته بمصر . أما من يود قراءة دراستى الكاملة فإننى أحيله إلى مجلة فصول – ربيع ١٩٩٢ أو إلى كتابى (أنساق القيم فى الإبداع المصرى) هيئة قصور الثقافة- سلسلة كتابات نقدية- عدد رقم ١٠٣ مايو ٢٠٠٠ .

***

شخصية جبل فى أولاد حارتنا هى صدى لشخصية النبى موسى فى التراث العبرى . فالطفلان (موسى وجبل) لقيطان . ولكى يكون التطابق تامًا ، فإنهما لقيطا ماء (فى التوراة على حافة النهر) وفى أولاد حارتنا ((فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار)) (قارن سفرالخروج – الإصحاح الثانى وأولاد حارتنا ص ١٣١) وفى التوراة فإنّ ابنة ملك مصر (الفرعون حسب الاستخدام العبرى) هى التى رأتْ الطفل وسمعتْ بكاءه ورقتْ له وقالت ((هذا من أولاد العبرانيين)) (خروج ٢ : ٦ ، ٧) وفى أولاد حارتنا فإنّ هدى هانم (زوجة الأفندى ناظرالوقف) هى التى رأت الطفل وسمعت بكاءه فرق قلبها إلخ . وكما تربى موسى فى بيت الملك المصرى (الفرعون) كذلك ينشأ جبل . وكما قتل موسى رجلا مصريًا كذلك يفعل جبل . وإذا كان أحد العبريين يتشكك فى موسى (فى اليوم الثانى للقتل مباشرة) ويقول له ((أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى)) (خروج ٢ : من ١١ – ١٥) فإنّ دعبس (وهو من آل حمدان مثل جبل) يقول لجبل ((أتريد أنْ تقتلنى كما قتلت قدره ؟)) (أولاد حارتنا من ١٣٧ – ١٤٠ ، ١٥١) .

وإذْ يُصور العهد القديم لقاء موسى بربه إله العبريين ، وأنهما تكلما سويًا عن ذل شعب بنى إسرائيل فى مصر ونزول الإله ليُنقذهم من أيدى المصريين ، فإنّ أولاد حارتنا – لأنها ليست رواية ، بل صدى لما جاء فى العهد القديم- لاتُفوّت الفرصة وتصوّرلقاء جبل بجده الجبلاوى . فى هذا اللقاء فإنّ الجبلاوى (رمزالإله

العبرى) يُحرّض جبل على الثأر من ناظرالوقف (أى الفرعون) ومن الفتوات التابعين له (أى باقى المصريين) الذين يذلون ويضطهدون أسرة آل حمدان ، وهى الأسرة التى تُمثل الامتداد لسلالة الجبلاوى ، أى العبريين . يقول الجبلاوى لحفيده جبل ((أنت يا جبل ممن يركن إليهم ، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضبًا لأسرتك المظلومة ، وما أسرتك إلاّ أسرتى ، وهم لهم فى وقفى حق يجب أنْ يأخذوه ، ولهم كرامة يجب أنْ تصان ، وحياة يجب أنْ تكون جميلة . وعندما يسأله جبل ((كيف السبيل إلى ذلك ؟)) فإنّ الجبلاوى يرد عليه قائلا ((بالقوة تهزمون البغى . وتأخذون الحق . وتحبون الحياة الطيبة)) (قارن سفرالخروج – الاصحاحين ٣ ، ٤ وأولاد حارتنا من ص ١٧٦ – ١٧٨) .

وكما يذهب موسى إلى (الفرعون) من أجل بنى إسرائيل ، كذلك يذهب جبل إلى ناظرالوقف من أجل آل حمدان . تقول زوجة الناظر لجبل (وهى التى التقطته وربّته) : ((علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان إكرامًا لك)) فيرد جبل عليها ((الحق يا سيدتى أنهم يُعانون ذلا ألعن من الموت ، وقد قُتل منهم من قُتل)) فيقول الأفندى ناظرالوقف ((إنهم مجرمون . وقد نالوا ما يستحقون)) فيرد جبل عليه ((المجرمون حقًا هم الفتوات)) (ص ١٨٤) أى أنّ المجرمين هم المصريون . وقارن أيضًا بين وصف العهد القديم للمصريين والفرعون فى سفرالخروج فى أى إصحاح تشاء ، ووصف أولاد حارتنا للفتوات وناظرالوقف فى فصل (جبل) لتكتشف بسهولة ويسر التطابق التام بين الرمز والمرموز إليه ، وأنّ الكتاب الثانى ما هوإلاّ صدى للكتاب الأول) حتى سيطرة موسى على الثعابين نجد شبيهًا لها عند جبل (قارن سفرالخروج – إصحاح ٤ وأولاد حارتنا من ص ١٩٠ – ١٩١) .

فى العهد القديم نقرأ كيف انتصرموسى على المصريين ((فقال الرب لموسى مد يدك على البحرليرجع الماء على المصريين . على مركباتهم وفرسانهم . فمدّ موسى يده على البحرعند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه . فدفع

الرب المصريين فى وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر. لم يبق منهم ولا واحد . وأما بنواسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم . فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظراسرائيل المصريين أمواتًا على شاطىء البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين)) (خروج- إصحاح ١٤ الآيات من ٢٦- ٣١) فكيف كان انتصارجبل وآل حمدان على ناظر الوقف والفتوات التابعين له ؟ إنّ (زقلط) الفتوة ممثل سلطة ناظرالوقف ، يهجم هو ورجاله الفتوات على بوابة آل حمدان (آل جبل سلالة الجبلاوى) وعندما يصلون إلى الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش ، يحدث التطابق مع النص التوراتى . يقول الكاتب ((وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادتْ أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة)) (ص ١٩٦) فهل هناك شبهة تجنٍ عندما أقول إننا لسنا إزاء عمل أدبى ، بل مجرد صدى لما سطره العبريون عن تاريخهم كما أرادوه ؟ لنقرأ كيف يُصوّرالكاتب نهاية زقلط (رمز سلطة البطش عند المصريين) كتب ((وتشبّثتْ يدا زقلط بجدارالحفرة يريد أنْ يثب (بالضبط كحال الفرعون وهو يحاول رفع رأسه قبل أنْ يغرق) وقد تجلى الحقد فى عينيه وراح يُغالب الإعياء والخور ويزفر أنات كالخوار)) (لاحظ التشبيه بالحيوان) وبعد ذلك ((انهالتْ عليه النبابيت حتى تهاوى إلى الوراء وتراخت يداه عن الجدار فسقط فى الماء وفى كل راحة من راحتيه قبضة من طين)) (ص ١٩٦) بعد هذه الهزيمة لممثلى البطش والظلم (أى المصريين) فإنّ شاعر آل حمدان يصيح ((هذه عاقبة الظالمين)) (لاحظ اللغة الدينية) ثم يقول المتجمهرون من آل حمدان ((إنّ جبل قد أهلك الفتوات كما أهلك الثعابين)) (١٩٦ ، ١٩٧) والكاتب يتشكك فى ذكاء القارئ ، ويخشى أنْ يكون التقابل التوراتى قد أفلت منه ، فيعاود تذكيره على لسان رفاعة فى الفصل المعنون باسمه ، قال رفاعة ((ليت الدهليز بقى لنا . إنه

دهليز مبارك . إذْ فيه تقرر النصر لجبل على أعدائه)) (ص ٢٦٧) .

بعد هذا الانتصار الساحق لجبل كتب المؤلف ((هاجم الجميع (من آل حمدان) بيوت الفتوات فاعتدتْ الأيدى والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع)) وهذا غير نهب البيوت بكل ما فيها (ص ١٩٧) فإذا كنا إزاء عمل أدبى ، فإنّ العقل الحر يتساءل ، كيف يتحول الفتوات الوحوش الجبابرة ، إلى جبناء ضعفاء يتلقون الصفعات ويتحسسون أقفيتهم إلخ دون أدنى مراعاة لعامل التحول الدرامى للشخصيات ؟ كما لو كنا نشاهد فيلمًا سينمائًا هابطًا لايراعى أبسط قواعد الدراما .

ويستبدل كتاب (أولاد حارتنا) بخروج العبريين من مصر كما جاء فى التوراة ، انتصار آل حمدان بزعامة جبل وهزيمة ناظر الوقف والفتوات (المصريين) بل إنّ ناظر الوقف ((يقف أصفر الوجه ذليلا ثم يوافق على شروط جبل ويُعلن موافقته على استرداد حقوق آل حمدان)) وأكثر من ذلك يُعلن أنّ جبل هو الذى سيُدير الوقف إنْ أراد (ص ٢٠٠) فبدلا من خروج العبريين من مصر كما ينص التراث العبرى ، تتم السيطرة والسيادة لآل حمدان على الحارة (وهذا أول خروج عن النص العبرى فى أولاد حارتنا) وعندما يقول دعبس (من آل حمدان) : ((ولمَ لا يكون الوقف كله لنا ؟)) فإنّ جبل يرد ((أمرنى الواقف (أى الجبلاوى) باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين)) وفى هذا خروج على النص التوراتى الذى يُعيد الكاتب تدوينه ، فالتوراة تُحرّض العبريين صراحة على نهب المصريين إذْ جاء النص صريحًا ((فيكون حينما تمضون أنكم لاتمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين)) (خروج ٣ من ١٨ - ٢٢) فهذه دعوة صريحة للعبريين، عندما تخرجون من مصر لاتمضون فارغين . ويكون ذلك بالطبع من خلال ((سلب المصريين)) وهذا الخروج على النص التوراتى يُحسب لكتاب (أولاد

حارتنا) ولكن بعد هذا الخروج على النص التوراتى تعود (أولاد حارتنا) فتستدرك الموقف ، فبعد أنْ أعلن جبل أنّ الواقف أمره باسترداد حقوق آل حمدان (لاحظ الاسم الذى يُذكرك بآل عمران) لاباغتصاب حقوق الآخرين ، إذا به يرد على (دعبس) : ((ومن أدراك أنّ الآخرين سيأخذون حقوقهم)) قائلا ((لا شأن لى بذلك وإنك لاتكره الظلم إلاّ إنْ وقع عليك)) (ص٢٠٠) إنّ هذا التحول من النقيض إلى النقيض تم فى الصفحة ذاتها . إنّ جملة ((أمرنى الواقف باسترداد حقكم لاباغتصاب حقوق الآخرين)) تبدو- رغم الإسقاط الظاهر- كصياغة أدبية ، ولكن لأنّ الكاتب مهتمٌ بإعادة تدوين الفكرالعبرى ، يشعر أنه ضبط نفسه متلبسًا بالخروج على النص ، لذلك يُسارع- فى الصفحة ذاتها- إلى ضبط الشخصية على البوصلة الموضوعة لها سلفًا ، لذلك تأتى جملة ((لاشأن لى بحقوق الآخرين ، وإنك لاتكره الظلم إلاّ إنْ وقع عليك)) مناقضة لما قبلها. بل هى شديدة القسوة على الإنسان ، لأنها تُشبهه بأدنى وأحط الكائنات الحية. فأنا لا أعرف – ولكننى مستعد لتصور أنّ الدودة قد لا تشعر بألم دودة أخرى ملاصقة لها ، ولكننى أعرف أنّ الإنسان- الكائن الوحيد المتطور من مرحلة إلى مرحلة أرقى- يتألم ويشعر بالظلم الواقع على الآخرين ، حتى وإنْ لم يمسه هذا الظلم (برنارد شو، برتراند رسل ، جان بول سارتر إلى آخر أسماء الفلاسفة والمبدعين والمفكرين العظام الذين قادوا الحملات ضد الاستعماريْن الإنجليزى والأمريكى ، لصالح تحرير الشعوب من هذيْن الاستعماريْن مثل الشعب المصرى والشعب الفيتنامى إلخ) والمسألة فى ظنى- ومن واقع صفحات أولاد حارتنا- أنّ الكاتب أراد أنْ يؤكد أنّ جبل يُدافع عن آل حمدان فقط ، كما كان موسى يُدافع عن العبريين فقط .

وعندما يقول دعبس لجبل ((إنك لاتبغى الفتونة . سأكون أنا الفتوة)) فإنّ جبل يصيح ((لافتونة فى آل حمدان.. ولكنْ ينبغى أنْ يكونوا فتوات جميعًا على من يطمع فيهم)) (ص٢٠٢) وهذا هو الخروج الثالث على النص التوراتى فى فصل

(جبل) إنّ البشرية كانت تتمنى أنْ يتحقق الجزء الأول من كلام جبل ((لافتونة فى آل حمدان)) ولكن الحاصل غيرذلك تمامًا ، فالجزء السامى من العبريين الذين اختلطوا وعاشوا فى أوروبا ، تجمّعوا وقرّروا الاستيلاء على أى مكان ولو بنزع السكان الأصليين عن طريق الإبادة . فكروا فى الاستيلاء على سيناء ، ثم فكروا فى أوغندا. وأخيرًا نجحوا فى الاستيلاء على فلسطين بعد المجازر والمذابح المعروفة . وحتى لايظن القارئ أنّ هناك شبهة تجنٍ أو شبهة تعسف فى التفسير ، فإننى أرجوه أنْ يُراجع معى الأمثلة السابقة والتالية : يقول جبل لأهله ((إنكم أحب أهل الحارة إلى جدكم (الجبلاوى) فأنتم سادة الحارة دون منازع)) (ص ٢٠٢) إنّ هذه الجملة توقظ – وفق قانون التداعى الحر- مقولات العبريين عن ((شعب الله المختار)) وفى العهد القديم نقرأ ((طوبى للأمة التى الرب إلهها الشعب الذى اختاره ميراثًا لنفسه)) (المزامير- مزمور٣٣) وكذلك نقرأ ((فالآن إنْ سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب)) (خروج ١٩ / ٥) وفى القرآن العظيم نقرأ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢].

وبدأب شديد يُصر الكاتب على المباشرة دون أدنى مواربة ، فيجعل شخصيتين من آل حمدان يتشاجران ، فيفقأ أحدهما عين الآخر. كانت المشاجرة بسبب النقود . قال حمدان لجبل ((سيرد دعبس النقود إلى كعبلها)) فصاح جبل بأعلى صوته ((فليرد إليه بصره أولا)) قال رضوان شاعرآل حمدان ((ليت فى الإمكان رد البصر)) فقال جبل وقد أظلم وجهه كالسماء الراعدة البارقة ((ولكن فى الإمكان أنْ تؤخذ عين بعين)) ويُصر جبل على رأيه ويقوم بنفسه ويضرب دعبس (المعتدى) ويُطوّقه من الخلف ويأمر كعبلها (المعتدى عليه) قائلا ((قم فخذ حقك)) وعندما يقوم كعبلها مترددًا فإنّ جبل يصيح فيه وينظر إليه نظرة قاسية ويقول ((تقدم قبل أنْ أدفنك حيًا)) فيقوم كعبلها فعلا ويفقأ عين دعبس على مرأى من الجميع

(ص٢٠٧ ، ٢٠٨) إنّ أية شخصية من الشخصيات الشريرة فى الأدب العالمى لم تصل فى دناءتها إلى هذه الدرجة من القسوة ، بل إنّ القارىء يتعاطف معها ويحبها (راجع شخصيات «تورتيلا فلات» لـ «جون شتاينبك» وشخصيات ديوستوفيسكى ، وشخصيات ديكنز وبصفة خاصة فى روايته البديعة «الصغيرة دوريت» وهذه نماذج على سبيل المثال بالطبع) والمشكلة أنّ كاتب (أولاد حارتنا) لايُبدع أدبًا ، وإنما يُعيد كتابة الفكر العبرى ، وفى المثال الأخير يريد أنْ يؤكد على جزء من شريعة العبريين : ففى التوراة نقرأ ((وإنْ حصلت أذية تعطى نفسًا بنفس . وعينًا بعين . وسنًا بسن . ويدًا بيد إلخ)) (خروج ٢١ من ٢٣- ٢٥ وفى القرآن العظيم انظر سورة المائدة / ٤٥) فهل هناك شبهة تجنٍ فى وضوح التطابق التام بين موسى وجبل ؟ وأنّ آل جبل وآل حمدان سلالة الجبلاوى هم اليهود العبريون ؟ وبالتالى فإنّ ناظر الوقف والفتوات هم المصريون المجرمون المعتدون ؟! إنّ الأمثلة كثيرة أربأ بنفسى من تكرارها . وإنما أختتم بنموذج أخير من فصل جبل حيث يدور حوار حول شخصية الجبلاوى : هل هو جد الجميع أم جد آل حمدان فقط ؟ ترديدًا لما جاء فى العهد القديم ((تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب)) (قارن أولاد حارتنا ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ مع سفر الخروج ١٩ / ٥) .

***

إنّ كتاب أولاد حارتنا ألقى على كاهل تاريخ النقد الأدبى مجموعة من التساؤلات :

١- ما الذى دفع كاتبًا مثل نجيب محفوظ ، خاض أجمل متعة يمر بها الفنان ، أى لحظات الخلق والإبداع ، ليكتب عملا لا علاقة له بالفن والأدب ؟

٢- لماذا يتطوع كاتب مصرى ، سبق له أنْ ترجم كتاب (مصر القديمة) تأليف جيمس بيكر عام ٣٢ وكتب رواية (عبث الأقدار) عام ٣٩ ورواية (رادوبيس) عام ٤٣ ورواية (كفاح طيبة) عام ٤٤ أى أنه اقترب من تاريخ الحضارة المصرية ،

وبالتالى فإننى أفترض افتراضًا مشروعًا ، أنه كان يعرف – أو يجب عليه أنْ يعرف – أنّ لغة العلم (وخاصة علم اللغويات وعلم المصريات) تختلف عن اللغة الدينية ، وبالتالى هناك اختلافات شديدة التباين بين ثقافة المصريين الزراعية وثقافة العبريين الرعوية ، وعرف – بالتأكيد- وهو ينقل عن العهد القديم ، التوجه الأيديولوجى المعادى للمصريين ، ليتأكد من حجم العداء الموجه ضد جدودنا ، وأنّ إله العبريين حوّل أرض مصر إلى خراب ، والبيوت والزرع والنهر إلى دم . فلماذا يتطوع كاتب (مصرى) ليُعيد تدوين كتاب (العهد القديم) ؟ فى حين أنّ المواطنة الأيرلندية (كاثرين ماك أنثير) أقامت دعوى قضائية أمام محكمة دبلن العليا طالبتْ فيها بحظر تداول العهد القديم لأنه أساء إلى مصر والمصريين ومجمل الحضارة المصرية ، التى كانت مهد الحضارات الإنسانية !! والعداء العبرى ضد مصر لا يفترضه أحد ، فرغم التناقض الواضح فى الآيات العبرية التالية ، فإنّ العقل الحر يلتقط المغزى بسهولة ، فقد نصّتْ صراحة على ((قال بنو إسرائيل لموسى ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هذا هوالكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كفّ عنا فنخدم المصريين . لأنه خيرلنا أنْ نخدم المصريين من أنْ نموت فى البرية. فقال موسى للشعب لاتخافوا . قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين لاتعودون ترونهم أيضًا إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) (خروج ١٤ : ١١- ١٤) وفى القرآن العظيم خطاب إلى بنى إسرائيل ينص صراحة على ((وإذْ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)) (البقرة / ٥٠) .

٣- إنّ الأدب يربأ بنفسه عن إطلاق الأحكام القيمية على الشخصيات ، ولكن بمراعاة أنّ (أولاد حارتنا) صدى ل (العهد القديم) ولمجمل التراث العبرى المعادى لمصر، فإنّ ناظرالوقف (أى الملك المصرى / الفرعون) رجل ((فاقد الشرف)) (ص ١٩٩) أما إذا انتقلنا إلى التاريخ فإنّ علماء علم المصريات أكدوا من

واقع البرديات أنّ ملوك مصر العظماء (الفراعنة وفق التسمية العبرية) كانوا يموتون فى ساحة القتال دفاعًا عن شرف الوطن ، ولم يُحاربوا من داخل القصور كما يفعل الزعماء المعاصرون لنا ، وإنما كانوا أمام الصفوف الأولى مثلهم مثل أى جندى . ولمن يريد مثالا حيًا فعليه أنْ يذهب إلى المتحف المصرى- قسم المومياوات- ليشاهد جثة الملك العظيم سقنن – رع ليعرف عدد الطعنات التى تلقاها على وجهه وصدره .

٤- إنّ علماء علم المصريات أكدوا على أنّ العبريين عملوا بالتجسس ضد مصر لصالح الغزاة – مرة مع الهكسوس ومرة مع الحيثيين- كما أكدوا- من خلال البرديات- على أنّ ملوك مصر سمحوا لبنى إسرائيل الرعاة الرحل الهاربين من القحط والمجاعة- باقتطاع الأراضى الزراعية على الحدود ، ليزرعوا ويعيشوا حياة كريمة ، وهذه سمة من سمات الشعوب المتحضرة ، شعوب الثقافة الزراعية التى تعرف مجتمع (الوفرة) ولكن العبريين أصحاب الثقافة الرعوية ومجتمع (القحط والندرة) قابلوا إحسان المصريين بأبلغ إساءة : التزوير الذى يؤكد الحقد . وفى هذا السياق ذكرد. رشاد عبدالله الشامى أنّ فرعون (= ملك) مصر طلب من بنى إسرائيل العمل ((كسائر المصريين فى الزراعة وصناعة البناء اللتين كانتا الصناعتين الرئيسيتين فى مصر، وأضفوا (أى بنى إسرائيل) على أمانيهم ورغباتهم قدسية إلهية تستر ما يخفونه من تآمر على أبناء الشعب المصرى ، وجعلوا (يهوه) إلههم القبلى ينكل بالمصريين فى صورة عمليات انتقامية بشعة ، ردًا على جميل الإقامة لخمسة قرون نعموا خلالها بخيرات مصر، وهى الخيرات التى ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد فى التيه)) (انظر كتابه : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية- سلسلة عالم المعرفة الكويتية- عدد ١٠٢ - يونيو١٩٨٦ - ص ١٢) .

٥- إنّ فتوات أولاد حارتنا (= المصريين فى العهد القديم) ظلمة ، عتاة ، مجرمون ، وحوش ، غلاظ القلوب ، فهل هذه الأوصاف تنطبق على جدودنا ؟ لنستمع إلى رأى العالم سيجموند فرويد الذى وصف المصريين القدماء ب (الوداعة) ووصف

الساميين ب (الهمج) (أنظر كتابه موسى والتوحيد- ترجمة عبدالمنعم الحفنى- ص١٠٩) هذا هو عالم (موسوى الديانة) ولكنه احترم وانحاز إلى لغة العلم قبل ديانته . وقبله بعدة قرون ذكر المؤرخ الإغريقى هيرودوت (٤٨٤- ٤٢٥ ق .م) الذى زار مصر فقال عن جدودنا المصريين فى كتابه الثانى- فقرة رقم ٣٧ بأنهم ((يزيدون كثيرًا عن سائر الناس فى التقوى)) (مصدر سابق – ص ١٢٤) .

٦- إنّ التاريخ المصرى الممتد شهد الكثير من الأحداث والغزوات ، يتنظر المبدعين الذين ينطلقون من أرضية مصرية ، تتوخى لغة العلم والأمانة والموضوعية (وهى لغة لاتتحقق إلاّ إذا كان عقل المبدع خاليًا تمامًا من جرثومة الأيديولوجيا ، سواء سياسية أو دينية أو عاطفية) فيكون لدينا العشرات من الأعمال الإبداعية على مستوى (جسر على نهر دربنا) أو (النهر الهادئ) أو (المسيح يصلب من جديد) أو(مائة عام من العزلة) إلى آخر هذه الأعمال الخالدة . إنّ المبدع المصرى منعزلٌ عن تاريخه ، ومازالت رائعة سعد مكاوى (السائرون نيامًا) شاخة وحدها تشهد على هذا الانعزال .

إنّ كتاب (أولاد حارتنا) يُثير الأسى على المستويين : الإبداعى والتاريخى . وإذْ أعترف بأننى أحترم الكاتب الكبير نجيب محفوظ – الإنسان والمبدع- كما أننى لا أسمح لنفسى بالاقتراب من منطقة (ضمير الآخر) وبالتالى أرفض استخدام أسلوب الاتهامات ، كذلك فإننى لا أقيم وزنًا لما فى (النيات) بمعنى إذا قال أحد أنّ الأستاذ نجيب محفوظ لم يقصد شيئًا مما ذكرته ، فإنّ الرد بسيط : إنما العبرة بما هو مدوّن على الورق ووصل إلى القارئ وليست العبرة بالنيات . وصدق أرسطو فى قوله الحكيم ((أفلاطون حبيب إلى قلبى .. ولكن الحقيقة أحبُ إلىّ من أفلاطون)).

أنّ (أولاد حارتنا) كتاب مشكلة فى تاريخ المصادرة ، رفضه الكهنوت الدينى وتجاوز عنه نقاد الأدب ، من منظورين مختلفين ، فهل نأمل فى مناخ ليبرالى يسمح بالإفراج عن الكتاب ، ليكون القارئ – وحده – هو الحكم على الكتاب وهو القيم على نفسه ؟

obeikan.com

الفصل الرابع

سرقة الآثار المصرية مع غياب الحس القومي

تمتلك مصر ثلثىْ الآثار على مستوى العالم . وهذه الآثارالتى تركها جدودنا المصريون القدماء ، ملكٌ لشعبنا المصرى ، وبالتالى فهى ليست (ميراثًا) لفئة حاكمة أو طبقة مسيطرة على الحكم ، وبناءً عليه لا يجوز بيعها أو إهداؤها أو التصرف فيها ، وإنما يجب الحفاظ عليها ، لأنها ليست ملكًا للأجيال الحالية ، وإنما هى ملكٌ لكل الأجيال القادمة من المصريين . ورغم هذه الحقيقة الساطعة واللاهبة كشمس بؤونة ، فإنه لايكاد يمر أسبوع إلاّ ونقرأ فى الصحف المصرية (أحيانًا) وفى الصحف الأوروبية (غالبًا) عن سرقة بعض الآثار المصرية. و(غالبًا أيضًا) أنْ يكون اكتشاف السرقة بحكم قانون المصادفة ، و(غالبًا للمرة الثالثة) أنْ تتم عملية السرقة والتهريب بمعرفة بعض كبار رجال الدولة (المصرية) ولعلّ أشهر الأمثلة على ذلك ما ورد فى شهادة (مارك بيرى) المتورط فى قضية تهريب الآثارالكبرى من مصر إلى لندن ، إذْ جاء فى التحقيق معه ((أنّ ضابطًا فى البوليس المصرى برتبة لواء ، كان يُتابع عملية تهريبه للآثارالمصرية من مطار القاهرة)) (نقلا عن صحيفة الأهرام ٧/ ٢/ ٩٧) والجدير بالملاحظة أنّ الكشف

عن هذه العملية تمت بمحض الصدفة ، إذْ أنّ مواطنًا إنجليزيًّا شاهد فى أحد المعارض بعض الآثار المصرية ، وبخبرته عرف أنها (أصلية) وتذكر أنه رآها فى المتحف المصرى ، فبادر بإبلاغ الشرطة الإنجليزية التى تولت التحقيق .

وغالبًا (للمرة الرابعة) ما نقرأ – فى تبرير أنماط القيم المنحطة – أنّ الفساد موجود فى كل دول العالم . وهذه الحجة هى تشجيع على استمرار الفساد والتسليم بعدم جدوى مقاومته ، لأنها تنطلق من قاعدة التعميم ، وهى قاعدة ملفوظة فى علمىْ المنطق والفلسفة ، ناهيك عن علم الاجتماع ، فهذه العلوم الإنسانية تؤمن بالنسبى وترفض المطلق . فإذا كان الفساد موجودًا فى كل دول العالم (وهى حقيقة لايمكن إنكارها) فإنّ أحجامه وأنواعه تختلف من بلد إلى آخر ، وهذا الاختلاف يحكمه عاملان أساسيان :

الأول : وجود آلية الديمقراطية أو غيابها . فالدول الديمقراطية لاتعترف بقداسة الشخصيات العامة ، حتى وإنْ كانوا حكامًا (وليستْ لديهم آفة بالروح بالدم نفديك يا فلان) لذلك تملك أجهزة الإعلام جرأة تناول جرائم الكبار بمن فيهم رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء ، وليس الوزراء فقط . كما أنّ النيابة العامة والقضاء فى هذه الدول الديمقراطية يتمتعان بالاستقلال التام عن السلطة التنفيذية ، الأمر الذى يسمح بإقامة الدعوى القضائية ضد أى مسؤول على رأس السلطة التنفيذية ، والأمثلة عديدة فى كل دول العالم المتحضر – من أميركا إلى أوروبا إلى اليابان إلى الهند والصين إلخ حتى إسرائيل التى يُحسبْ عمرها بعمر الأطفال الرضع ، قياسًا بعمر أغلب دول العالم ، نجد أنّ نظامها السياسى لايُفرق – فيما يتعلق بالمال العام – بين الغفير والوزير ، وأمثلة استدعاء رؤساء وزراء إسرائيل أمام محققى الشرطة كثيرة وقرأها كل العالم نقلا عن الصحف الإسرائيلية ذاتها بل والتليفزيون الإسرائيلى ، ومن أمثلة ذلك ما فجّره التليفزيون الإسرائيلى عن فضيحة تعيين المدعى العام فى إطار صفقة مع حزب شاس الدينى ، وبالفعل تم

استجواب رئيس الوزراء (وقتها) نيتانياهو بمعرفة فريق تحقيق من الشرطة الإسرائيلية (أهرام ١٨ ، ١٩ فبراير٩٧) أما فى الدول الشمولية ، فالوضع عكس ذلك تمامًا ، حيث يسود مبدأ القداسة لشخص الحكام ، وبالتالى فإنّ آلية الديمقراطية غائبة أو شبه غائبة ، لذلك فإنّ أجهزة الإعلام – وهى مملوكة للشعب وتُمول من خزينة الدولة ، ولكنها تحت سيطرة الأنظمة الحاكمة ، لاتمس – إنْ مسّتْ – إلاّ الصغار أو صغار الكبار. وهو الأمر المشاهد فى كل الأنظمة الدكتاتورية ، وبصفة خاصة الأنظمة التى تجمع بين سلطة العسكروت والكهنوت . وفى ضوء هذا التوضيح فإنّ الفساد يقل فى الدول الديمقراطية ويزداد بصورة بشعة وملحوظة فى الأنظمة الشمولية .

العامل الثانى : هو الحس القومى ، وهو مسؤولية الشعوب قبل الحكام ، فالشعب الذى يُدرك القيمة الحضارية لتاريخه وتراثه يضع عرفًا لحدود الفساد ، خاصة اذا مسّ هويته القومية. فلم يحدث أنّ يونانيًا كفّر سقراط أو أرسطو أو ساهم فى تهريب الآثار اليونانية ، ولكن مع غياب الحس القومى فى مصر – بعد كارثة أبيب / يوليو ١٩٥٢ ، والادعاء الكاذب أنّ مصر عربية ، نجد مسئولين (مصريين) على درجة كبيرة من الثراء المادى ، ومع ذلك يتعاملون مع آثار جدودهم كما يتعاملون مع مواسير الصرف الصحى ، فلواء الشرطة (المصرى) الذى شارك فى تهريب الآثار المصرية ، تربى تحت سنابك ثقافة سائدة تُروّج لمقولة أنّ الحضارة المصرية (وثنية) وبالتالى يجب تدمير آثارها . فإذا كان تدميرها واجبًا دينيًا ، فلا بأس من سرقتها ، بل إنّ سرقتها حلال وفقًا لأصول الفقه الإسلامى ، لأنها من ((بدع الكفار)) .

وتحت سنابك هذه الثقافة السائدة ، اقترح الصحفى أ. أحمد بهجت تحطيم الأحجار التى تسقط من الهرم الأكبر إلى قطع صغيرة ، توضع فى سلسلة مفاتيح وبيع الواحدة بعشرة دولارات للسياح (أهرام ٨/ ٦/ ٩١) فلو أنّ هذا الصحفى يُحرّكه حس قومى ، لطالب بإعادة الأحجار المتساقطة ، وليس اقتراح الهدم من أجل

حفنة دولارات . ومع غياب الحس القومى ، فإنّ هذه الدعوة المدمرة لم يتصد لها إلاّ بعض المصريين فى بريد القراء ، بينما تجاهلها أغلب الكتاب ، باستثناء عالم المصريات الراحل الجليل بيومى قنديل الذى كتب ((إنّ الأستاذ الفاضل قارن بين هذه الفكرة التى طرحها تحت عنوان أفكار وبيع إسرائيل لهواء القدس على هيئة علب صغيرة مغلقة وخالية لكن مباركة ، فإسرائيل لم تُفكر فى لحظة فى بيع قطعة واحدة من آثارها أو تراثها أو تاريخها سواء سقطت تحت وطأة الزمن أو الجور أو الإهمال ، بل تبيع والحالة هذه الهواء ، أى ثروة متجددة باستمرار. لكن الأستاذ الفاضل يدعو إلى بيع حجرأو اثنين من الأحجار المتساقطة ، أى بيع ثروة غير متجددة بل ومحدودة للغاية حتى ولو كان العزم مبيتًا على مساعدة الزمن قليلا كى يتدخل بإسقاط آخر فآخر كلما سال اللعاب للأخضر الساحق ، وهذا أمر مرجح فى ضوء عبادة إله المال وشعار((كل شىء للبيع)) والسؤال الوحيد المشروع هو بكم ؟ وفى هذه الحالة نتمكن من هدم الهرم الأكبر الذى يُعد الأعجوبة الأولى من أعاجيب الدنيا السبع وأعظم بناء معمارى بنته يد الإنسان على سطح المعمورة . ويؤمن أمريكيون غير مصريين بأنه مركز الكرة الأرضية . ويقف رمزًا على وحدة المصريين من كل الطوائف والفئات واللهجات والمشارب. ووقف أمامه نابليون بونابرت مشدوهًا وقال ((إنّ أمة تستطيع أنْ تبنى لنفسها قلبًا من حجر على هذا النحو لجديرة أنْ تعيش إلى الأبد)) وإذا سقط حجر فعلينا لو كنا جديرين بالانتساب لمن بنوه انتساب الأحفاد للأجداد أنْ نعمل على إعادته إلى مكانه وفقًا لعلوم ترميم الآثار، لا أنْ نفكر فى تحطيمه وبيعه لمن يريد)) واختتم مقاله قائلا ((الحق أننى لا أدرى ما إذا كنتُ أتقدم بالشكر لأولئك الأجانب الذين سيتبركون بمثل تلك الميدالية الحجرية ، لأنها جزء من الهرم الأكبر، أم أعتب كل العتب على الذين يمكن أنْ تطرأ على أذهانهم مثل هذه الأفكار الهدامة)) (صحيفة الأخبار١٢/ ٦/ ٩١) .

وإذا كان كل مصرى شريف يتمنى الحفاظ على تراث جدوده ، فما العمل

لوقف تهريب الآثار أو محاولة هدمها ؟ لاخلاف على ضرورة تغليظ العقوبات ، ورفع مرتبات العاملين بهيئة الآثار. ولكن حتى لو تم هذا ، فإنّ الظاهرة ستستمر طالما استمرت السيادة للثقافة المعادية للحضارة المصرية التى تصنع بدورها ظاهرة غياب الحس القومى . والحل تملكه مؤسستا التعليم والإعلام لو كانت السيطرة لإرادة الحياة وليست لإرادة الموت . فلو أنّ التلميذ المصرى تعرّف على الدور الرائد لجدوده فى صنع الحضارة الإنسانية ، ولو أنّ مسؤولى التعليم وزّعوا عليه الكتب الجادة التى تتناول الحضارة المصرية ، ولو أنهم خصصوا ثلاث حصص فى الأسبوع لمادة علم المصريات من الإبتدائى إلى الجامعة ، ولو أنهم أطلعوه على ما تفعله مدارس وجامعات أوروبا من اهتمام بهذا العلم ، ولو أنّ الإعلام (المصرى) فعل نصف أو ربع ما تفعله دول العالم المتحضر، مثل إنتاج أفلام تسجيلية وروائية عن الحضارة المصرية ، ومثل تخصيص ساعات يوميًا لبرامج تتناول هذه الحضارة ، لو أنّ إرادة الحياة انتصرتْ وأصبح لدينا تعليم وإعلام بهذا المستوى القومى المتحضر ، هل ستكون سرقة الآثار وتهريبها بنفس الكم ؟ أليس من المتوقع أنه فى ظل عودة الحس القومى أنّ هذه السرقات ستقل شيئًا فشيئًا ، خاصة عندما يُدرك المصرى أنّ الآثار ثروة تحرص الشعوب المتحضرة على مشاهدتها ، كما أنها مصدر مهم من مصادر الدخل القومى ؟ وفى ظل عودة الحس القومى أليس من المتوقع أنْ يكون لدينا مسئولون كبار يترفعون عن الإثراء عن طريق سرقة تراث جدودهم ويكتفون بدخولهم الخيالية ؟ وحتى لو فكر فى الإثراء غير المشروع ، فهل يسرق تماثيل الإله حورس كما فعل لواء الشرطة ؟ أم يتجه إلى الوسائل الأخرى ، مثل الحصول على القروض من البنوك (العامة) وتهريبها إلى خارج مصر كما فعل كثيرون ؟ وبمراعاة أنّ الوسائل غير المشروعة متعددة ومتنوعة ، بينما تماثيل الآلهة المصرية محدودة وغير متجددة (من بين الوسائل غير المشروعة السماح للعرب بتملك الأراضى المصرية وشراء الشركات المصرية لإذلال العمال المصريين (شركة كتان طنطا نموذجًا) وقد

نشرت صحيفة المصرى اليوم (١٠/ ٢/ ٢٠١٠) أنّ العقد الموقع بين الحكومة المصرية والوليد بن طلال (سعودى الجنسية) لامتلاك ١٢٨ ألف فدان بمنطقة توشكى + ١٠٠ ألف فدان (ملحقات) بسعر ٥٠ (خمسين) جنيهًا للفدان وأنّ هذا الثمن يشتمل على خدمة المرافق بما فيها توصيل المياه . وهذا البند وحده يُكلف مصر سنويًا أكثر من ٢٠٠ مليون جنيه + الإعفاء من كافة الرسوم ، والأخطر الإعفاء من كافة أنواع الضرائب . ونص العقد على أنه ليس من حق القضاء المصرى النظر فى أى نزاع ينشأ بين المستثمر السعودى والحكومة المصرية ، وإنما يُنظر النزاع أمام التحكيم الدولى ، على أنْ تتحمل الحكومة المصرية كافة المصاريف بما فيها مصاريف الانتقال والرسوم القضائية. ورغم أنّ الفدان تم بيعه بسعر ٥٠ (خمسين) جنيهًا ، فإنّ المسئولين المصريين وافقوا على أنْ يتم سداد المبلغ ((على أقساط)) أى أننا أمام ((احتلال عربى)) للأراضى وللشركات المصرية ، أى ((استعمار عربى لاقتصاد مصر)) وهو الأمر الذى جعل أ. سيد على يعتقد أنّ المسئولين المصريين الذين وقعوا على العقد مع المستثمر السعودى ، كانوا أثناء التوقيع تحت تأثير مادة مخدرة ، على طريقة الأفلام السينمائية ، أنّ (البنت) المغلوبة على أمرها والتى استسلمت للخطيئة ، سقاها (المجرم) ((حاجه أصفره)) (أهرام ١٣/ ٢/ ٢٠١٠) ولمزيد من التفاصيل انظر : الدراسة المهمة التى كتبها د. أحمد السيد النجار بعنوان (دولة الوليد بن طلال فى مصر) ونشرتها صحيفة العربى الناصرى على صفحة كاملة – عدد ٢ مايو ٢٠١٠ وتتضح المأساة أكثر عندما نعلم أنّ الوليد ابن طلال حصل على قرض من البنك الأهلى المصرى .

الفصل الخامس

أبو حصيرة :
من الضريح إلى المستوطنة

يُفجّر كتاب د. سوزان السعيد يوسف (المعتقدلات الشعبية حول الأضرحة اليهودية- دراسة عن يعقوب أبى حصيرة بمحافظة البحيرة) الصادر عن دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، قضية غاية فى الخطورة تمس استقلال أو(اتفريط فى) كامل التراب الوطنى المصرى .

خطورة الكتاب أنّ مؤلفته تستهدف شيئًا واحدًا ، هو ترسيخ الاعتراف بالأمر الواقع ، وأنّ على شعبنا المصرى أنْ يقر ببداية الاستيطان الإسرائيلى على أرض مصر. والمدخل لهذا الاستيطان هو ضريح (أبوحصيرة) فى محافظة البحيرة . وهذا الهدف يمكن استنتاجه بسهولة من صفحات الكتاب . وأود أنْ أشير إلى الحقيقة التى لا خلاف حولها ، وهى أنّ العبرة بما هو مدوّن وأصبح فى يد القارئ وليست العبرة بالنيات . وفيما يلى بعض أسبابى عن خطورة هذا الكتاب على استقلال مصر.

تتعمد المؤلفة وصف يعقوب أبى حصيرة بالصدّيق كلما جاء ذكره فى معظم صفحات الكتاب . وتُركز على أنه صاحب مدرسة فى التصوف فى المغرب . والأخطر من ذلك أنّ

صفة الصدّيق تربطها المؤلفة بإيحاء آخر حيث كتبتْ ((وكذلك بعض الملوك والأنبياء وحتى الشعراء يُعتبرون من الصديقين)) (ص ٧٢) وكتبتْ أيضًا أنّ عائلة هذا الصدّيق ((تعيش الآن فى جنوب إسرائيل فى بئر سبع باعتبارها عائلة مقدسة)) (ص ١١٦) والتركيز على صفات التقديس والتبجيل والتصوف والتواضع إلخ عن أبى حصيرة وعائلته ، يصعب حصرها ، خشية الاطالة ، وبالتالى يحق لكل مصرى أنْ يسأل : لماذا هذا التركيز (شديد الكثافة) على هذه الصفات ؟ وحتى لو صدّقنا نحن المصريين أنّ (أبوحصيرة) من أولياء (يهوه) الصالحين ، فهل هذا مبرر لبقائه على أرض مصر ؟

فى تبريرها لبقاء ضريح (أبى حصيرة) فى مصر، كتبتْ المؤلفة ((أنّ الشريعة اليهودية تُحرّم نقل الجثة بعد دفنها)) (ص ١٤٠، ١٨١) وحيث أنّ المؤلفة تؤيد مرجعية بنى إسرائيل الدينية (الشريعة اليهودية) فإننى أحيل القارئ إلى سفر الخروج (إصحاح ١٣ : ١٨- ١٩) الذى جاء به ((وصعد بنو إسرائيل مُتجهزين من أرض مصر. وأخذ موسى عظام يوسف معه)) وتبعًا لذلك فإنه حسب شريعة بنى إسرائيل الدينية ، فإنه يجب نقل الضريح من مصر. كما أنّ المؤلفة تعترف بأنّ بعض الأضرحة اليهودية التى كانت خارج إسرائيل ، تم نقلها إلى إسرائيل (ص١٠٢، ١٠٤)

ولم تكتف د. سوزان بتبرير بقاء الضريح فى مصر، وإنما وضعتْ نفسها فى موقف مضاد وضد الحركة الوطنية المصرية والكتاب الوطنيين ، أمثال أ. مختار السويفى الذى طالب فى أكثر من مقال بضرورة تسليم (أبو حصيرة) لإسرائيل . أو ما ذكرته صحيفة الأهالى المصرية (عدد ١/ ١/ ٩٧) من أنّ (أبوحصيرة) هو كمسمار جحا مغروز فى قلب قرية مصرية . أو ما ذكرته مجلة روزا ليوسف (٦/ ١/ ٩٧) من أنّ أهالى القرية تقدّموا بعدة شكاوى إلى محافظ البحيرة ومدير الأمن ، مُطالبين جميع الأجهزة بالسماح لهم بمزاولة أعمالهم ومنع الاحتفالات

اليهودية داخل قريتهم . هؤلاء الكتاب الوطنيون فى نظر المؤلفة يُهاجمون الحدث (أى الاحتفال بأبى حصيرة) ليس ذلك فقط ، بل إنها تلوم الإعلام المصرى لوجود نوع من التعتيم الإعلامى عن هذا الحدث (ص ١٥٥) أى أنها تطلب من الإعلام المصرى الترويج والدعاية للاحتفال بصاحب الضريح واستمرار وجوده على أرض مصر. وإذا كانت المؤلفة عَمَدَتْ إلى تكذيب مجلة روزا ليوسف التى ذكرتْ أنّ الاحتفال يستمر مدة أسبوع (ص ١٥٥) نجدها (= المؤلفة) تكتب فى ص ١٦١ ((وفى هذه المناسبة يبدأ اليهود فى التوافد إلى مصر من شتى أنحاء العالم قبل الاحتفال بأسبوع))

تعترف المؤلفة بوجود إجراءات أمن مشددة أثناء الاحتفال بالولى الإسرائيلى لدرجة أنّ الحراسة تمتد ((على الطريق بين القاهرة ودمنهور. أما داخل مدينة دمنهور فتنتشر قوات الأمن فى كل مكان وتمتلئ الشوارع بالجنود ويُمنع مرور الأهالى بهذا الطريق . وفى قرية دمتيوه تُغمر المنطقة المحيطة بالضريح بالمياه حتى تمنع أى (غزو) للمنطقة وتلقى العديد من الجوالات المليئة بالرمل حول الضريح . وفوق المنازل المحيطة بالضريح ينتشر فوق الأسطح الجنود بمدافعهم فى حالة استعداد)) (١٦١، ١٦٢) واعترفتْ المؤلفة أنها لم تتمكن من حضور الاحتفال عام ٩٥ إلاّ بفضل معاونة مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلي بالقاهرة (ص ٧) .

إنّ هذه الإجراءات الأمنية ، حوّلت ضريح الولى الإسرائيلي إلى مستوطنة إسرائيلية داخل مصر. وهى صورة طبق الأصل من المستوطنات الإسرائيلية داخل فلسطين المحتلة. فإذا كانت هذه الإجراءات الأمنية تستهدف حماية اليهود ، فالسؤال هو: حمايتهم مِنْ مَنْ ؟ والإجابة بالطبع حمايتهم من المصريين (الأعداء) حتى لايقوموا بـ(غزو) منطقة الضريح / المستوطنة (كلمة الغزو وردتْ فى وصف المؤلفة فى الفقرة السابقة) كما أنّ هذه الإجراءات الأمنية حرّمتْ على المصريين الدخول إلى أرض (مصرية) أى أننا إزاء مستوطنة إسرائيلية داخل مصر. وهو الأمر

الذى لم يُلفتْ نظر المؤلفة التى اهتمت بإضفاء صفات القداسة على واحد من أبناء بنى إسرائيل ، ولم تكتب كلمة واحدة عن ضرورة نقل هذا الضريح من مصر.

ذكرتْ المؤلفة أنه ((أقيم مزاد على أول من يدخل الضريح وأول من يُشعل الشموع للصدّيق (أبوحصيرة) وقد دفع مبلغ مائة ألف دولار للحصول على مفتاح الضريح)) (ص ١٦٣) والسؤال هو: فى أى أوجه الإنفاق سيتم صرف هذا المبلغ ؟ وهذا السؤال يجب ربطه بالطلب الذى تقدّم به بعض الإسرائيليين إلى وزارة الخارجية المصرية ((يُعلنون فيه أنهم يرغبون فى شراء خمسة أفدنة من الأراضى الفضاء المجاورة لمقبرة مسمار جحا المسماة بضريح أبوحصيرة)) (انظر: مقال أ. مختارالسويفى - أهرام ٩/ ٩/ ٩٨ ص ١١) والسؤال هو: لماذا هذه التوسعات ؟ أليست هذه الأساليب التوسعية هى بالضبط ما فعله ويفعله اليهود فى فلسطين المحتلة ؟

ذكرتْ المؤلفة ((تعطى العقيدة الشعبية المصرية أهمية بالغة للاعتقاد فى الأولياء)) وأنّ يعقوب أبى حصيرة ((ولى من أولياء الله الصالحين)) (ص ١٤٦ ، ١٤٧) ولم تكتف المؤلفة بهذا الإيحاء ، وإنما ذكرتْ أيضًا ((من الدراسة السابقة يتضح لنا أنّ التشابه فى القصص الشعبى يمكن أنْ يُقدّم لنا صورة عن التشابه فى الخيال الشعبى لدى الشعوب المختلفة)) (ص ٢٢٠) والإيحاء هنا واضح لاغموض فيه ، وأنّ الرسالة التى تُصر المؤلفة على توصيلها للقارئ هى : بقاء الضريح الإسرائيلى فى مصر ، طالما أنّ الخيال الشعبى لدى الشعوب المختلفة متشابه.

إنّ هذه اللغة التقريرية تتجاهل أنّ ولع المصريين بزيارة الأضرحة وتمسكهم بظاهرة الاحتفال بالأولياء (مسلمين ومسيحيين) إنما هو تعبير عن ثقافة قومية مصرية خالصة. وقد انعكستْ هذه الثقافة حتى على الشخصيات العربية ، فجدودنا المصريون أطلقوا على السيدة زينب بعض صفات الإلهة المصرية إيزيس

(الطاهرة) (أنظر: أدولف إرمان – ديانة مصر القديمة- ترجمة د. عبدالمنعم أبوبكر، ود. محمد أنورشكرى – هيئة الكتاب المصرية- مكتبة الأسرة – عام ٩٧ ص ٤٨٤) وأضفوا على شقيقها الحسين بعض صفات أوزيريس (سيد الشهداء) (انظر التفاصيل : بيومى قنديل – حاضر الثقافة فى مصر- ط ٢ ص ٦٩) كما أنّ طقوس الاحتفال بمولد (سيدى أبوالحجاج) بالأقصر هى ذات الطقوس التى كان جدودنا المصريون القدماء يؤدونها للإله آمون (انظر: محرم كمال – آثارحضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية – سلسلة الألف كتاب الأول – عدد ٣٨ – نشرته دارالهلال – عام ١٩٥٦ من ص ٧٣- ٧٩) كما أنّ هذه الأضرحة فى مصر ليست بها شبهة المستوطنات ، بمراعاة أنها متاحة لكل المصريين ، حيث يزور أبناء طنطا الحسين والعكس صحيح فى كل الأضرحة المنتشرة فى مصر.

ذكرت المؤلفة أنّ ((المعتقد الشعبى (المصرى) يربط بين شم النسيم والممارسات الخاصة بالصدّيق (أبوحصيرة) فعيد شم النسيم يُحتفل به بجوار الضريح ، ويرجع هذا الربط إلى أنّ اليهود يحتفلون فى اليوم الأخير من عيد الفصح باحتفال مشابه لشم النسيم ، وهذا العيد يرتبط بعبور البحر الأحمر وخروج اليهود من مصر والخلاص اليهودى)) (ص ١٥٥) لاحظ عزيزى القارئ تعبير ((الخلاص اليهودى)) الذى يؤكد تطابق المؤلفة مع ما ورد فى العهد القديم من عداء غيرمبرر على المستويْن الإنسانى والتاريخى ضد جدودنا المصريين. وبالتالى لمصلحة من يتم هذا الربط أو هذا الخلط بين احتفال مصرى مستمد من ثقافة قومية مصرية ، وبين الأيديولوجيا العبرية عن قصة خروج اليهود من مصر((فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتًا على شاطىء البحر)) (خروج ١٤ : ٣٠) فهل تتضامن المؤلفة مع خراريف بنى إسرائيل وتعتقد- مثلهم- أننا نحن المصريين ((أمواتًا على شاطىء البحر)) ؟

ذكرتْ المؤلفة أنّ ثمة صلاة تقام عند الحائط الغربى للضريح ، فى إشارة إلى

المعبد اليهودى فى أورشليم وحائط المبكى . وتبدأ (الصلاة) بالافتتاحية التالية ((لكل إسرائيل نصيب فى العالم الآتى كما قيل : وقومك كلهم صالحون وسيرثون الأرض إلى الأبد .. إلخ)) (ص ١٦٩) ولأنّ بنى إسرائيل يُقدّسون ويؤمنون بكتابهم (العهد القديم) فإنّ الأمانة العلمية تفرض على الباحث الموضوعى أنْ ينقل للقارئ ما هى الأرض التى أهداها إله العبريين لبنى إسرائيل ؟ ولأنّ مؤلفة كتاب (أبوحصيرة) لم تفعل ، فإننى أنقل للقارئ بعض ماورد فى العهد القديم ((واجتاز إبرام فى الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة موره . وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض . وظهر الرب لإبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض)) وأيضًا ((وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبًا وشرقًا وغربًا . لأنّ جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد)) وكذلك ((وقال له: أنا الرب الذى أخرجك من أورالكلدانيين ليُعطيك هذه الأرض لترثها)) وفى موضع آخر فإنّ الإله العبرى يُوزع على بنى إسرائيل أوطان الغير بالجملة ((فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)) (تكوين الإصحاح ١٢ ، ١٣ ، ١٥) .

وذكرتْ المؤلفة أنه أثناء الصلاة تتم تلاوة فقرات من سفرىْ التثنية والعدد . وبالرجوع إلى العهد القديم نجد أنّ الآية ٤١ من سفرالعدد التى أشارت المؤلفة إليها تنص على ((أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من مصر)) فإذا كان الإله العبرى تراجع فى وعده ، وتولى إخراج بنى إسرائيل من أرض مصر، فلماذا التمسح والتحايل لبناء مستوطنة إسرائيلية فى مصرفى شكل ضريح ؟

وذكرتْ المؤلفة أنّ ((هناك بعض القصائد التى تُنسب إلى أبى حصيرة . وهذه إحدى القصائد التى تُنشد فى عيد الفصح)) يقول أبوحصيرة ((وعلمتُ أنّ الله هناك / أحكم فرعون وجنوده الحصار/ فخرجتْ جنود الله كل رجل بسلاحه وتحوّل البحرلهم يابسة / وعبرته طائفة مقدسة وتغنى كل رجل وامرأة أغنية /

حتى من فى بطن أمه غنى)) وعقبتْ المؤلفة على كلام أبى حصيرة فكتبتْ ((وهذا الشعر يظهر به أثر نشيد الإنشاد فى مخاطبة إسرائيل باعتبارها الحبيبة . وهو يروى عن خلاص إسرائيل من مصر الذى وافق عيد الفصح والأمل فى خلاص إسرائيل القريب)) (ص ١٨٠) والمؤلفة هنا- رغم مراجعها العديدة ومن بينها العهد القديم، فإنها لم تكتب كلمة واحدة فى كتابها تُشير أو حتى توحى إلى أنّ العهد القديم استوقفها أو حتى أثار تساؤلها عن أسباب العداء الذى شنّه إله العبريين ضد المصريين (خاصة فى سفر الخروج) العداء الذى وصل لدرجة تحويل أرض مصر ونيلها إلى دم وبعوض وضفادع وإلى ((قتل كل بكر فى أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم)) وكيف لم تتوقف المؤلفة أمام ذلك الرب الذى يخشى على نفسه من عدم القدرة على التمييز بين المصريين وبنى إسرائيل ، فيطلب من الأخيرين أن يضعوا على بيوتهم علامة من الدم حتى لا يُخطئ وهو يضرب المصريين فقال ((ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها . فأرى الدم وأعبر عنكم . فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب مصر. ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا فتُعيّدونه عيدًا للرب فى أجيالكم . تُعيّدونه فريضة أبدية)) (خروج ١٣) أليست هذه الفريضة الأبدية هى ما يتغنى أبوحصيرة به على أرض مصر؟ وتتكاثر الأسئلة وعلامات التعجب عندما تنص المؤلفة على أنّ ((... الأساطير اليهودية تذكر أنّ موسى قد شق البحر بقوة اسم الرب . والقصة بها العديد من العناصر الخارقة)) (ص ٢١٢) ومع هذا فإنها لم تكتب كلمة واحدة فى نقد وتحليل هذه الأساطير المعادية لنا نحن المصريين ، بل إنها لم تكتف بذلك وإنما ساقت المبررات لاستمرار بناء الضريح / المستوطنة فى مصر .

ذكرتْ المؤلفة أنه فى مناسبة ختان الصدّيق اليهودى تُتلى بعض النصوص من العهد القديم ومنها المزمور٢٩ الذى يقول ((صوت الرب مكسر الأرز ويُكسر الرب أرز لبنان ويمرحها مثل عجل . لبنان وسريون مثل فرير البقر الوحشى .

صوت الرب يقدح لهب نار. صوت الرب يُزلزل البرية. يُزلزل الرب برية قادش))
وهنا نجد أنّ المؤلفة لايعنيها فحوى هذا المزمور. ولم تتوقف أمامه ولم تُعقب بكلمة واحدة على هذا الإله العبرى الذى يُكسر أرز لبنان ويُزلزل قادش (قادش : اسم مدينة كانت وسط سوريا وكانت ضمن حدود الامبراطورية المصرية، خاصة فى فترة حكم تحوت- موس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى- أنظر كتاب «رمسيس الثانى- فرعون المجد والانتصار»- تأليف كنت أ. كتشن- ترجمة د. أحمد زهير أمين – هيئة الكتاب المصرية- مكتبة الأسرة عام ٩٨ ص ٥١) ولم تسأل المؤلفة السؤال الذى يسأله لنفسه أى باحث موضوعى : ما علاقة العبريين بلبنان أو قادش ؟ ولماذا هذا العداء لهما لدرجة التدمير؟ وإذا كانت المؤلفة ساقت المبررات العبرية لبقاء الضريح / المستوطنة فى مصر، فلتكن مهمة كل مصرى الدفاع عن الاستقلال الكامل لكل ذرة من تراب مصر. ولتتضامن أصوات كل المصريين فى مناشدة القيادة السياسية لإتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل رفات (أبوحصيرة) إلى إسرائيل أو إلى أى مكان يختاره اليهود، حتى لايتحول مسمار جحا (ضريح الولى الإسرائيلى) إلى بداية الاستيطان الإسرائيلى فى مصر.

الفصل السادس

الحضارة المصرية : صراع الأسطورة والتاريخ

كتب ديودورالصقلى فى كتابه تاريخ العالم ج ١ ((جميع اليونانيين الذين اشتهروا بعلمهم وحكمتهم زاروا مصرفى العصورالقديمة حتى يتعرّفوا على عاداتها وينهلوا من علومها . وأنّ كل الأشياء التى جلبتْ الإعجاب كانت منقولة عن مصر)) وكتب (بلوتارك) المؤرخ اليونانى الذى زارمصر أنّ ((فيثاغورس أخذ العلم الذى أكسبه العالمية عن كهان طيبة ومنف)) أما هيرودوت فيُقررفى كتابه الثانى ((أنّ النظام الدينى المصرى أقدم كثيرًا مما عند الإغريق ، فلابد لهذه الأسباب أنْ تكون مصر هى المنشأ لهم جميعًا)) هذا غيرآلاف الكتب التى كتبها علماء متخصصون فى علم المصريات وأثبتوا فيها الدورالرائد للحضارة المصرية على كل حضارات العالم القديم . ورغم هذه الحقيقة التى لاينكرها العقل الحر المتجرد من أية أيديولوجيات عرقية أو دينية أو سياسية ، مازال مصريون (نعم مصريون) يُهاجمون تراث جدودهم ، إلى الحد الذى دفع بعض الأكاديميين الكبار أنْ يُطالبوا بإلقاء أعمال جادة تتحدث عن الحضارة المصرية (مثل موسوعة مارتن برنال «أثينا إفريقية

سوداء») فى أى صندوق زبالة وأنّ هذه الكتب عبارة عن ((زبالة فكرية)) (انظرالتفاصيل التى ذكرها المفكر والمترجم الجاد أ. شوقى جلال فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق- الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة- تأليف جورج جيمس – طبعة ١ المجلس الأعلى للثقافة عام ٩٦ وط ٢ هيئة قصورالثقافة عام ٢٠٠٨ ص ٣٩) .

أردتُ بهذا المدخل المختصر أنْ أدلل على أهمية كتاب (الحضارة المصرية- صراع الأسطورة والتاريخ) تأليف أ. شوقى جلال الصادرعن دارالمعارف المصرية سلسلة إقرأ- العدد ٦١٤ عام ٩٦ . والكتاب كما جاء فى التمهيد مجموعة من الدراسات منطلقها ومحورها كتاب (أثينا إفريقية سوداء) لمؤلفه مارتن برنال . بالإضافة إلى مقال بقلم برنال لخص فيه مضمون المجلدات الثلاثة لكتابه الموسوعى وحمل عنوانًا رئيسيًا هو (أثينا السوداء- الجذور الإفريقية الآسيوية للحضارة الكلاسيكية) والخط الرئيسى للكتاب هو مناقشة النظرية السائدة فى أوروبا وأمريكا القائلة أنّ اليونان هى مهد الحضارة ، وبالتالى فالسيادة للإنسان الأبيض ، ونفى أى دور للأفارقة والآسيويين . ويُفرّق برنال بين نموذجين حكما الإطار الفكرى والقيمى لأوروبا فى حقبتين زمنيتين مختلفتين : النموذج القديم ، ويعنى أنّ اليونان مشرقية تقع على تخوم حضارة ثقافية مصرية سامية. والنموذج الآرى ، ويعنى أنّ حضارة اليونان أوروبية الأصل والمنشأ والمسار. وهذا النموذج ينقسم إلى قسمين : النموذج الآرى العام الذى يرفض الاعتراف بأى أثر للمصريين على الإغريق ، ولكنه يعترف ببعض الأثر للفينيقيين ، وهم هنا اليهود مع إخراج بقية الساميين . وهو ما تم بفضل جهود اليهود أنفسهم . والقسم الثانى هو النموذج الآرى المتطرف الذى أنكر تمامًا أى تأثير للساميين والمصريين على حد سواء.

تعتمد دراسة برنال على عدة محاورمثل الوثائق ، الآثار، اللغة ، أسماء الأماكن والآلهة ، وذلك للتدليل على أثر المصريين (وغيرهم) فى الحضارة اليونانية. ومن

الوثائق ألواح المجموعة الخطية (بى B) من القرنين ١٤ ، ١٥ ق . م مكتوبة باللغة اليونانية ولكنها تحتوى على الكثير من الكلمات المصرية القديمة . وعن اللغة كتب برنال إنّ أكثر- إنْ لم يكن أغلب العناصر غير الهند / أوروبية فى اللغة اليونانية يمكن تفسيرها على أساس مصرى أو سامى غربى . كما أشار إلى المحاولة التى قام بها (بارتليمى) لاستخلاص الكلمات اليونانية من جذور قبطية . وعن أسماء الأماكن أكد على أنّ الأسماء المصرية تغلب على أسماء المدن اليونانية مع الاستشهاد بالعديد من الأمثلة ، مثل اسم أفروديت المشتق من (بروجيت) المصرية. وعن أسماء الآلهة فإنّ هيرودوت يُقرر بوضوح أنّ ((جميع الآلهة تقريبًا جاءت إلى اليونان من مصر)) بل إنّ أسماء بعض الأبطال فى التراث الإغريقى مأخوذة عن أسماء بعض ملوك مصر، مثل اسم أجاممنون المشتق من اسم أمنمحات الذى هو اسم العديد من فراعنة الأسرة رقم ١٢ .

إن كتاب (الحضارة المصرية- صراع الأسطورة والتاريخ) يدعو إلى التوقف أمام ظاهرة لافتة للانتباه وللأسى ، وهى أنّ كتاب برنال الموسوعى ، الذى أكد فيه على أكذوبة الجنس الآرى الأبيض ، ودلل (مثل غيره من علماء المصريات) على الدور الرائد لجدودنا المصريين فى وضع أسس الحضارة الإنسانية ، ومع ذلك فإنّ كثيرين من الأكاديميين (المصريين) شنوا هجومًا حادًا على الكتاب واتهموا مؤلفه مارتن برنال بتهم عديدة منها (بل وأخطرها) أنه ينطلق من نزعة صهيونية ويُروّج لأفكار إسرائيلية. وأرى أنّ أهمية كتاب أ. شوقى جلال ترجع إلى مناقشة هذا الاتهام الموجّه ضد برنال ، لمجرد أنه أثبتْ دور إفريقيا بصفة عامة ودور مصر بصفة خاصة فى التمهيد للحضارة الإنسانية.

الدفاع عن الحضارة المصرية دفاع عن إسرائيل والصهيونية

كان الأساس النظرى لفكرة تجميع شتات اليهود فى وطن يحمل اسم (إسرائيل) هو ما سطره اليهود فى الكتب العبرية ، بدءًا بالتوراة وما جاء بعدها .

والفكر العبرى يتناقض مع الفكر المصرى من منظور نسق القيم ، فضلا عن العداء لمصر والمصريين . فالتوراة تبدأ بترسيخ رذيلة الكذب ، عندما طلب إبراهيم من ساره أنْ تقول : إنها أخته وليست زوجته عند دخولهما مصر (تكوين / ١٢) والثانية الإدعاء بأنّ أرض مصر ومياهها تحوّلتْ إلى دم . والثالثة الإدعاء بأنّ إله العبريين قضى على المصريين وإلى الأبد (خروج الأسفار من ٧- ١٤) ثم رذيلة التحريض على سرقة المصريين (خروج ١٢ من ٢٤- ٢٦) ورذيلة التحريض على التمييز العنصرى وذلك بوضع علامة من الدم على بيوت اليهود حتىٰ لايُخطئ الإله العبرى وهو يمارس قتله للمصريين (خروج ١٢ من ١٢- ١٤) كما أنّ هذه المرويات تتنافى مع ما دوّنه المؤرخون والرحالة المعاصرون ودراسات علماء المصريات ، لتلك الأحداث .

كتب أ. شوقى جلال ((إن تزييف التاريخ صناعة إسرائيلية ، بدأتْ مع التوراة التى هى رواية لتاريخ مصطنع زائف عن شعب الله المختار. وتتابعتْ كتب تحمل صفة الدراسة الأكاديمية صادرة عن جامعات عالمية تُدعم الرؤية الصهيونية لتاريخ مصر)) واذا كان بعض المصريين يتهمون برنال بالصهيونية ، فإن أ. شوقى جلال أشار إلى الهجوم الذى شنّته بعض الأوساط المعروفة بولائها للصهيونية على كتاب برنال وأضاف ((وعمد أفراد عرب وكذلك كاتب مصرى معروف بانحراف اتجاهه ومقيم خارج مصر إلى إعادة تأويل وتحريف كتابات برنال ، بأنْ أسقط صفة مصرى عن الحضارات المؤثرة فى شرق المتوسط واليونان وحذا حذو الصهاينة عندما حجب دور مصر وأثرها فى حضارة اليونان ، واكتفى بالتأكيد على ما كتبه برنال عن دور الساميين والشرق ، رغم أنّ برنال تحدث بإفاضة عن مصر)) .

ومن أدلة الاتهام ضد برنال ما استشهد به بعض المصريين من أنّ جامعة هارفارد لم تنشر كتاب برنال ، فكتب أ. شوقى جلال ((وكأنّ جامعة هارفارد وغيرها برّاء من النزعة الصهيونية)) ثم عرض بالتفصيل تاريخ إنشاء تلك الجامعة

ودور اليهود سواء فى تمويلها أو فى رسم سياستها . كما أشار إلى حقيقة أخرى وهى أنّ الجناح اليمينى المتطرف فى أمريكا عارض كتاب برنال بشراسة. واذا كان برنال يستشهد كثيرًا بالمؤرخ هيرودوت ، خاصة كتابه الثانى ، فإنّ أ. شوقى جلال توقف عند حقيقة غاية فى الأهمية وهى أنّ ((جميع كتب هيرودوت فى جامعة إكسفورد مسموح بالاطلاع عليها فيما عدا الكتاب الثانى الذى يتحدث عن مصر. وليس الموقف فى جامعة كيمبريدج بهذا القدر من السفور، وإنما تم إسقاط الكتاب الثانى مع بعض الكتب الأخرى .. كما أنّ اليهود جاهدوا فى شتاتهم ضد النزعة الآرية العنصرية البيضاء ليُؤكدوا أنّ الساميين لهم دورعريق فى بناء الحضارة الإنسانية دون الحاميين ، أى دون مصر والأفارقة بعامة.. ورغم هذا فإننا نشهد فى مصر ومن العرب لومًا بل ولعنات يصبها البعض على تاريخ مصر القديم تحديدًا.. كما أنّ مصر فى الصورة العربية والإسرائيلية لتاريخها القديم ملعونة لأنها ناصبتْ إسرائيل العداء يومًا حسب رواية التوراة)).

إنّ العداء العبرى ضد مصر ليس له غير تبرير واحد ، فهو انعكاس ناطق للصراع الحضارى بين رعاة رحل ذاقوا مرارة الندرة بسبب قحط الصحراء الخارجين منها ، وزرّاع مستقرين عرفوا الكفاية والوفرة بسبب الزراعة. ورغم تغير الأزمنة مازال الصراع قائمًا ، فالمتدين الإسرائيلى قد يتخلى عن ذراعه أو عينه ولكنه لايتخلى عن آيات كتابه (المقدس) ولأنه يؤمن ب (النص) ولايؤمن بالعقل ، فهو مع أرض الميعاد ومع إبادة المصريين تنفيذًا لمشيئة إلهه العبرى المعادى لمصر. فإذا كانت هذه هى صورة الواقع ، فلماذا يرمى بعض المصريين برنال وغيره من علماء المصريات ، بتهم الانحياز للصهيونية وإسرائيل لمجرد أنهم اجتهدوا (وحتى مع افتراض الخطأ) وتوصلوا إلى النتيجة القائلة بأنّ مصر مهد الحضارات ، وأنّ اليونانيين تعلموا وأخذوا الكثيرمن مصر؟ وكيف يكون من يُدافع عن الحضارة المصرية تابعًا للصهيونية وإسرائيل ، والأساس العبرى كله يُعادى مصر والمصريين ؟

فهل من إجابة غيرسيطرة الشعور بالدونية نحو الثقافة القومية المصرية لدى بعض كبار متعلمى مصر وخاصة بين الأكاديميين ؟

***

ولأن أ. شوقى جلال يحترم لغة العلم ، لذلك كتب فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق) أنّ الأوروبيين يهتمون بالحضارة المصرية لدرجة تأسيس عدد كبيرمن الصحف والجمعيات الثقافية تأخذ لنفسها أسماء مصرية مثل أنصار مصر أو كيميت (وهوأحد أسماء مصر القديمة) ، (دعاة المحورية الكيميتية) ، (معهد ماعت الجديدة) إلخ وأشار إلى أنّ الاستقلال ليس سياسة أو اقتصاد فحسب ، بل استقلال فكرى أيضًا أو هو إبداع فكرى لعقل مستقل . واذا كان أفلاطون زار مصر وتعلم الفلسفة فى معابدها ، فإنّ سرقة الحضارة المصرية وصل ببعض اليهود لدرجة القول أنّ موسى كان معلم أخناتون ومعلم أفلاطون .

ردّ مؤلف كتاب (التراث المسروق) على دعاة أنّ اليونانيين هم أصل الفلسفة ، فأثبت من خلال عدة محاور أنّ الأصل كان فى مصر، فذكر حدود الامبراطورية المصرية ، وأثر ذلك الامتداد الجغرافى فى نشرالفكر والعلوم المصرية. ونقل عن ديودور أنه تم العثورعلى نصيّن فى العرابة المدفونة أحدهما للإلهة إيزيس والآخر للإله أوزير. ومنقوش على الثانى قول الإله أنه قاد جيشًا عبرالهند إلى منبع الدانوب فكتب المؤلف ((معنى هذا بطبيعة الحال أنّ الامبراطورية المصرية خلال فترة زمنية باكرة لم تكن تشمل فقط بحر إيجه وأيونا بل امتدت حتى الأطراف البعيدة من الشرق)) وفى محور آخر أثبت أنّ سلطات الحكم فى أثينا دأبتْ على اضطهاد الفلاسفة. وقدّمتْ عددًا منهم إلى المحاكمة. وكانت التهمة المشتركة كما جاء فى نص محاكمة سقراط هى ((عدم الإيمان بآلهة المدينة وإدخال آلهة غريبة عن البلاد)) وفى محورثالث أشار إلى ما دوّنه عديد من المؤرخين من أنّ عددًا كبيرًا ممن اشتهروا فى تاريخ الفلسفة اليونانية زاروا مصر وعاشوا فيها عدة سنين (أفلاطون ١٣ سنة ،

فيثاغورث ٢٣ سنة) على سبيل المثال . وعن الأخير(فيثاغورث) فإنّ جامعات العالم تنسب إليه نظرية المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية ، فكتب المؤلف أنّ هذا زعم فاضح ، لأنه أخفى الحقيقة قرونًا عن أعين العالم ، ولابد من تصحيح الوضع ، وأهمية أنْ يعرف العالم أجمع أنّ المصريين هم الذين علموا فيثاغورث واليونانيين علوم الرياضيات .

وإذا كان سقراط اشتهر بالحكمة القائلة (إعرف نفسك) فقد تم تجاهل أنّ نظم الأسرار المصرية اشترطتْ التحكم فى الانفعالات ، لأنّ هذا يُتيح مجالا لهيمنة القوى غير المحدودة ، والخطوة التالية هى مطالبة المريد المبتدىء البحث داخل ذاته عن القوى التى كانت مستحوذة عليه. كما أنّ هناك حقيقة أخرى تم تجاهلها ، وهى أنّ المصريين اعتادوا أنْ يكتبوا على جدران معابدهم عبارة (أيها الإنسان اعرف نفسك) كذلك منسوب إلى سقراط مبدأ العقل الكلى Nous أو العلة العاقلة لتفسير وجود الإله والخلق . وهو مبدأ نشأ أصلا فى نظم الأسرار المصرية .

وعن أفلاطون تناول المؤلف كل مبدأ فلسفى منسوب إليه وحلله بتوسع ليؤكد مصدره المصرى . فمثلا مبدأ (الصانع الأول فى الخلق) فإنّ مصر هى المصدر الأول لهذا المبدأ . ويرجع تاريخه إلى قصة الخلق فى مصر منذ أربعة آلاف عام ق.م والتى نجدها ضمن فقه الإلهيات فى مدرسة ممفيس : نقش على الحجر محفوظ فى المتحف البريطانى ، ويشتمل هذا النقش على آراء فى فقه الإلهيات وتفسير نشأة ونواميس الكون (الكوزمولوجيا) عند المصريين القدماء . وذكر المؤلف أنه ((إذا ما قارنا بين هذه الكوزمولوجيا المصرية مع الفرض السديمى الذى قال به (لابلاس) سنجد أوجه تشابه مذهلة بين النصين)) وأنّ أفلاطون نقل مشهد يوم الحساب فى الآخرة كما ورد فى كتاب الخروج إلى النهار الشهير فى ترجمته الخاطئة باسم (كتاب الموتى) وأنّ الفضائل الأربع الرئيسية المنسوبة إلى أفلاطون ، فإنها مقتبسة من الفضائل العشر المصرية .

وعن أرسطو ذكر أنه عقب غزو الإسكندر لمصر تم الاستيلاء على المكتبة الملكية فى الإسكندرية وكتب ((وعندى اعتقاد جازم بأنّ هذه فى الحقيقة كانت أعظم فرصة أتاحها الإسكندر لأرسطو ويسّر له ولتلاميذه الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من الكتب التى احتاجوا إليها . هذا غير مكتبة طيبة الملكية التى أسسها الفرعون (سيتى) وأكملها رمسيس الثانى ، وهى أعظم المكتبات الملكية المصرية)) وفى مناقشة المؤلف للمبادىء الفلسفية المنسوبة إلى أرسطو أكد على مصدرها المصرى . فمثلا مبدأ الأضداد نشأ أصلا فى نظام الأسرار المصرى . ومبدأ (المحرك غيرالمتحرك) مستمد من فقه إلهيات مدرسة ممفيس ، فهو (آتوم) أو الصانع الأول الذى خلق بكلمة اللوجوس منه أربعة أزواج من الآلهة. وقد خلقها من أعضاء جسده وتحركتْ خارجة منه وتمت عملية الخلق هذه بينما ظلّ آتوم ثابتًا لايتحرك .

وذكر أنّ الإغريق شوّهوا الآلهة المصرية عندما أضفوا عليها أسماء وأساطير يونانية وآسيوية. وفى نهاية القرن الرابع الميلادى تم إغلاق المعابد المصرية. وبدأتْ المسيحية فى الانتشار. وفى القرن السادس أصدر الإمبراطور جوستنيان مرسومًا بقمع كل معتنقى ديانة مصر، ولكن ظلّ السحر الشعبى هو المجال الوحيد المحافظ على الديانة المصرية التى كانت ديانة عالمية ، ولذلك تم الاحتفاظ بتمثال إيزيس وهى تُرضع طفلها حورس ، الذى أصبح يُمثل السيدة العذراء وطفلها السيد المسيح ، وبناءً على ذلك قرّرتْ الحكومة الرومانية أنه لكى تستكمل الغزو يجب إلغاء نظم الأسرار المصرية. وبالتالى لابد من عقيدة جديدة تحل محل الديانة المصرية.

وفى الجزء الثانى من الكتاب وجّه المؤلف النداء والرجاء إلى كل مثقفى العالم المتحضر لإعادة الاعتبار للمصريين أصحاب أول وأعظم حضارة إنسانية عرفتها البشرية . وأوصى بإقرار كتابه لتدريسه فى المدارس والجامعات لجميع شعوب العالم. وهى التوصية التى أيّدها أ. شوقى جلال مترجم الكتاب الذى يرى ضرورة أنْ تتضمن دروس التاريخ ، بل والمطالعة فى المدارس مقتطفات من آراء العلماء عن

حضارة مصر. ومختارات من الأدب المصرى القديم . وأنْ نُصحح المفاهيم الخاطئة، فنقول نظرية فيثاغورث التى تعلمها فى مصر(يرى المؤلف شطب اسم فيثاغورث من كتب الرياضيات المدرسية) وأنْ نقول معبد دلفى المصرى فى اليونان . وأنّ اليونانيين تلاميذ الفلسفة المصرية. ومن الخطأ أنْ نظل ضحية مشاعر الدونية . ومن الخطأ أنْ نُردد مع خصوم الحضارة المصرية قولهم: إنْ هى إلاّ أساطيرالأولين وأنّ التنقيب فى أطلال الماضى مضيعة للوقت أو ردة إلى (الوثنية) وأنْ نقطع كل صلتنا بهذا الماضى (الهمجى) واختتم أ. شوقى جلال هذه الفقرة قائلا ((الغريب أنّ دعاة هذا الرأى هم أعلى الأصوات فى الدعوة إلى التمسك بالتراث ، ولكن تراثهم هم)) كما أشار إلى دور الصهيونية فى تشويه الحضارة المصرية ونسبتها إلى الجنس الأبيض .

إنّ مؤلف الكتاب (أمريكى الجنسية) يستحق الشكر لأنه يُطالبنا نحن المصريين بالدفاع عن حضارتنا وبتبنى فلسفة تحرير لكل إفريقيا . ويغرس فينا مشاعر الكبرياء القومى . ويستحق أ. شوقى جلال الشكر لأنه قدّم بترجمته لهذا الكتاب هدية جليلة لكل مصرى مازال يعتز بقوميته المصرية وبحضارته. وإذا كان المصريون المتأثرون بالتراث العبرى هاجموا كتاب (أثينا إفريقية سوداء) وكتاب (التراث المسروق) واذا كان البعض يتعمّد تشويه حضارة جدوده ونحن فى عام ٢٠٠٩ فإن عميد الثقافة المصرية (طه حسين) كتب عام ١٩٣٧ يثاقب بصيرته أنّ اليونانيين ((كانوا فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص)) (مستقبل الثقافة فى مصر- دار الكاتب اللبنانى – ط ١٩٧٣ ص ٢٢) .